صورة المرأة
في
قصص نجيب الكيلاني

بقلم
د. عبير عبد الصادق محمد
مدرس الأدب والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر – إسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لقد استطاعت الرواية ذات الأطروحة الإسلامية أن ترسم صورة متكاملة عن المرأة، وأن تجسد عبر تقنيات السرد والوصف والحدث، ومختلف الأوضاع والحالات الفكرية والسلوكية للمرأة المعاصرة.

ولقد برزت تلك الصورة واضحة جلية من خلال قصص الكاتب نجيب الكيلانى[١].

وقد كان الروائيون في مصر على وعى تام بهذه الحقيقة ؛ حقيقة ارتباط حركة المرأة بحركة المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى دلالة المرأة كرمز ثرى موح، أكثر من هذا أنه اتضح خلال البحث أن صورة المرأة فى الرواية كانت تتعدى وجودها الفردى لتعبر عن حقائق أبعد من هذا الوجود، كأن تكون رمزاً للنوع الأنثوى، أو لطبقة أو لشريحة اجتماعية خاصة.[٢]

ومما يؤكد صلاحية المرأة لتكون رمزاً للواقع الذى تعيش فيه، أن شخصية الفتاة فى أسرة معينة أكثر دلالة . من الفتى . على نوع الرعاية والتربية التى تلقاها فى هذه

١) نجيب الكيلانى عبد اللطيف ولد عام ١٩٣١ م، في قرية شرشابة بمحافظة الغربية، حفظ معظم أجزاء القرآن الكريم، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية التحق بكلية طب قصر العينى، وتخرج فيها ١٩٦٠ م، من دواوينه الشعرية : أغانى الغرباء، عصر الشهداء، وكيف ألقاك، مدينة الكبائر، مهاجر، أغنيات الليل الطويل، نحو العلا، ومن رواياته : نور الهدى (جزءان)، اليوم الموعود، قاتل حمزة، مواكب الأحرار، النداء الخالد، عذراء جاكرتا، الظل الأسود، الطريق الطويل، ليالى السهاد، رحلة إلى الله، رجال وذئاب، رمضان حبيبى، عمر يظهر في القدس، مملكة البلعوطى، الذين يحترقون.... وغيرها.
ومن مجموعاته القصصية القصيرة : عند الرحيل، العالم الضيق، موعدنا غداً، الكابوس، فارس هوازن، دموع الأمير، حكايات طبيب.
ومن دراساته الإسلامية والأدبية : مدخل إلى الأدب الإسلامى، آفاق الأدب الإسلامى، رحلتى مع الأدب الإسلامى، تجربتى الذاتية في القصة الإسلامية، حول المسرح الإسلامى، القصة الإسلامية وأثرها في نشر الدعوة، الإسلامية والمذاهب الأدبية، الطريق إلى اتحاد إسلامى، الإسلام وحركة الحياة (جزءان)، حول الدين والدولة، تحت راية الإسلام، الثقافة في ضوء الإسلام، إقبال الشاعر الثائر، الإسلام والقوى المضادة، شوقى في ركب الخالدين، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، ومن المسرح : على أسوار دمشق. راجع معجم البابطين / المجلد /٥/٥٨، وديوان مهاجر / نجيب الكيلانى / ط / مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٠٦ هـ . ١٩٨٦م/٨.
٢) انظر / صورة المرأة فى الرواية المعاصرة /د/ طه وادى ط/ دار المعارف / الثالثة/ ١٩٨٤ م / ٥٢.

الأسرة. كذلك نجد المرأة قادرة على أن تستقطب بحسياتها المتأنية واتزانها العاطفى مُثل مجتمعها وتقاليده بجميع عناصرها استقطابا يبلغ الثبات والتكرار.

فإذا قلنا : " طالبة الجامعة "، أو " المرأة العاملة " أو " الفلاحة "، أو " بنت البلد " أو " الخاطبة "، أو " العاملة " على سبيل المثال، فمن السهولة بمكان أن نستجمع فى الذهن صفاتها . لا كفرد . وإنما كنموذج يتسم بسمات عامة لا تكاد تفردها خصوصيات تذكر.

صورة المرأة الملتزمة وصورة المرأة المتحررة :

وكاتبنا فى روايته "**رأس الشيطان**" يبرز قضية الحب كتجسيد لأزمة الحرية الذاتية للمرأة، مؤكداً على حرية المرأة واستقلالها العاطفى، باعتبارها شخصية فرد يحقق بحريته السعادة لنفسه وللآخرين، كما يحقق بها رقى المجتمع وصلاحه اللذين يؤديان في النهاية إلى تحرر الوطن وسعادته.

فصورة المرأة وأزمتها هى الجانب الذي حظى بعناية فائقة من المؤلف. من خلال عرضه للشخصية النامية في الرواية وهى شخصية " "صفاء" الصحيفة الوادعة الجميلة الخجولة، نحيلة الجسد، ذات العينين السوداوين الواسعتين، المشغولة بالدكتور " ضياء الدين " سكرتير تحرير الجريدة التي تعمل بها، فهى تنام وتصحو . وصورة الشاب الوسيم الرقيق ذى النظارات البيضاء القادم من باريس تملأ حياتها . والمشغول بها بركات الزنارى زميلها الصحفى، والذى يغار من الدكتور " ضياء الدين"[1]، وصفاء في تحقيقاتها الصحفية لا تبعد عن مجتمعها وواقعها فهى تتحدث عن العمال ونقاباتهم محرضة على الثورة، كما تضمنت مقالاتها الحديث عن التصنيع ورأس المال الأجنبى الذي يستغل ويطغى ويفسد كل شؤون البلاد.

وهى مسائل اعتبرها رئيس التحرير خطيرة وأكبر منها ومنه وهو رجل مسالم، يريد أن يعيش، وأن تظل صحيفته تصدر كل صباح.[2]

١) رواية رأس الشيطان / ٢٢، ٢٣.
٢) رواية رأس الشيطان / ٣٠، ٣١.

ولكن رئيس التحرير استطاع أن يعطل كفاءتها، ويسكت قلمها الحر بطريقة خبيثة ؛ إذ جعلها سكرتيرة خاصة له تسجل المكالمات التليفونية، وتسجل المواعيد، وترد على المراسلات الخاصة، وتغرق في أعمال كتابية ميتة.. لا انفعال فيها ولا حياة، وأخيراً جعل منها وجهاً جميلاً ينعم بطلعته رئيس التحرير، بل لم تصبح صفاء مجرد سكرتيرة، ولكن تحفة جميلة، أو لوحة رائعة أو باقة من الزهر يسعد قلبه العجوز بمرآها، ويستمتع بسمتها الوادع الحزين، ووجهها الشاحب في جمال، الباهر في جاذبية آسرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ذاعت الشائعات التي تزعم أن رئيس التحرير سوف يتزوج صفاء.

ولكن ما الذي جعل صفاء تقبل هذه الوظيفة ؟، وهى التي تعتبر كلمة سكرتيرة خاصة كلمة ذات رائحة تزكم الأنوف.[١]

وترد صفاء بنفسها عن هذا السؤال فتقول عن رئيس التحرير "... وجردنى من قلمى الثائر الذي علمتنى[٢] كيف أشرعه في سبيل الحق والشرف وقومنا المعذبين، وأعطانى قلماً رقيق الحاشية لا يثور، قلم السكرتيرة الخاصة وكنت بين أن أقبل الوضع التعس، أو أن أعود إلى بيتى خاوية الوفاض.. بلا مرتب.. وهل أخفى عنك أن مرتبى الآن ضرورة من الضروريات لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لأسرتى ؟؟ وبعملية حسابية بسيطة عرفت كيف أختار... الشارع أم الجريدة، وهكذا أصبحت سكرتيرة رئيس التحرير الخاصة.. كنت أتبعه كظله في الحفلات والمقابلات الرسمية والمكتب، وشعور بالإثم يلاحقنى.. أصبح كل من ألقاهم وجوهاً مكتنزة عليها آثار النعمة والتخمة.. خنازير بشرية، كل ما في أيديهم الذهب.. المال والأقلام ومبسم السيجارة والساعات والخواتم ولرئيس التحرير أصدقاء من كل صنف.. راقصات.. فنانات.. بائعات هوى.. ضباط.، إنجليز.. ناس من الخاصة الملكية.. مثل تاجر الروبابيكيا، الجميع أصدقاؤه وزبائنه، والمصلحة متبادلة. مجتمعات غريبة لا صلة لنا بها على الإطلاق، لا يفكرون فى شىء مما نفكر فيه على الإطلاق.. سكارى لا يفيقون إلا على حدث كبير. وأحسست فى هذا الجوع بأصابع خفية تكاد تخنقنى، ودموع ملء روحى وكيانى تريد أن تنبجس.. أن

١) رواية رأس الشيطان / ٨٧
٢) الخطاب لضياء الدين.

تتطلق لتخفف ما بى من ألم حاقد لكنى كظمت غيظى، وقلت : " صبراً.. لتغمضى عينيك كى تعيشى ويعيش أبوك وأسرتك.. " لكن لم أحتمل عندما جاء رئيس التحرير ذات يوم رشيقاً أنيقاً متصابياً.. وقال بنبرات مائعة : " عزيزتى صفاء، هل تقبلينى زوجاً لك ؟؟ " عندها كدت أرفع يدى النحيلة وأصفعه على وجهه، لكنى عندما نظرت إلى وجهه المجعد تذكرت أبى.. هل أصفع رجلاً مثل أبى، وخيل إلى أن أمى تمسك بيدى وتقول : " حرام يا صفاء.. اصفحى يا بنتى فنحن فى حاجة ماسة إلى مرتبك.. " ودار رأسى والرجل قبالتى ينتظر الجواب الحاسم، ووجدت نفسى عاجزة عن أن أقول لا.. أو أقول نعم.. أجل أدركت أنى ضعيفة، وحيدة، مقهورة، فلم أجب بغير الدموع الغزيرة التى سالت فوق خدى، والشهقات التى كنت أحاول جاهدة أن أكتمها.. وبعدها أطبق الرجل فكيه ثم اعتذر فى رقة وطوى حزنه وضياعه بين ضلوعه، لكن لم ترحمنى الشائعات التى سرت كالنار فى الهشيم، بركات الوغد كان دائماً يقذفنى بقاذورات فمه وحقده، وأنا وسط هذا الجو المسمم أمضى وكأنى عارية من كل فضيلة، وأصابع السوء تشير إليّ، وهمسات الإثم تطاردنى دون رفق أو هوادة ويجعلنى بركات أمر من أمامه ذات يوم، ويقول لصديق إلى جواره : " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر " فيرد صديقه : " كلّ ابن آدم خطاء، وأحب الخطائين إلى الله التوابون " لم يكن لى خطيئة لكن خطيئتى الوحيدة هى أنى محتاجة.. فقيرة ومضطرة لأن أكون سكرتيرة خاصة لرجل عجوز متصاب غير متزوج.. "[1].

وقد برزت شخصية صفاء واضحة جلية عندما رد على خطابها ضياء الدين بخطاب وضح من خلاله شخصيتها، وأبرز صفات كلٍّ من رئيس التحرير وبركات، وعلل لطلب كليهما الزواج منها. فقال عن شخصية صفاء : " هكذا كنت فى ذهنى دائماً.. فتاة حرة ثائرة.. لها أحزانها وآلامها لكنها تحاول جاهدة أن تقاوم الظروف القاسية، لتنتصر، أجل.. لتنتصر بوسائل شريفة نظيفة تختلف تمام الاختلاف عن وسيلة رئيس التحرير فى المحافظة على رأس ماله، وبقاء جريدته وحياة الدعة والرفاهية التى استسلم لها، وتختلف أيضا عن وسائل " بركات " الذى يسلك أبشع السبل ليصل إلى قصور الباشوات، وقصور الأمراء كثيرون أولئك الذين يشبهون بركات ورئيس التحرير،

١) الرواية / ٨٨، ٨٩.

تجدينهم فى كل طريق، وكل ناد أو حزب، وفى أية مصلحة من مصالح الحكومة، هم الصخور الناتئة التى تقف عقبة كأداء فى سبيل انتصارنا وتحررنا.. "[١]

ويقول عن شخصية رئيس التحرير تفصيلاً : " ورئيس التحرير يا عزيزتى لا يريد أن يتزوج، بل هو إنسان ساقط معذب الضمير، يريد أن يهرب من ضميره، من المثاليات التى آمن بها فى بدء حياته، وقد حاول أن يهرب إلى " فيلا " فخمة، فوجدها، برغم أثاثها الفاخر . خاوية كقلبه الجريح، وحاول أن يهرب إلى " عربة " أنيقة، فوجدها تسرع به إلى.. النهاية الأليمة، وطرق مجتمعات الكبراء وعلية القوم فهاله الضياع والكبرياء الجوفاء والطقوس المزيفة.. وأخيراً بحث عن قلب كبير يبثه آلامه وأوجاعه فلم يجد الزوجة الوفية، ولا الابنة البارة.. فبحث فيك أنت يا صفاء عنهما.."[٢].

أما بركات فهو مأساة مجسمة لجيل عابث من الشباب يريد أن يرتفع كما ارتفع الأوغاد فى جو من الريبة والنفاق والخيانة.. يريد أن يكون ذا مال ومركز ومجد من أقصر الطرق وبأخس الوسائل.. وأنت الفتاة الجميلة المثقفة يعتبرك رمز النصر والأمل فلم لا يخطبك لنفسه ؟

ثم يتحدث إجمالاً عن صفات هذه الشخصيات معمماً الحكم فيقول : "إن الأنانية القذرة التى تسيطر على أوهام الطبقة الحاكمة داء وبيل، لا يفكر أحد إلا فى نفسه، وآخر ما يفكرون فيه هو وطننا العربى الجريح، ليس لهؤلاء الطغاة عائلات فقيرة يعولونها كما تفعلين، وليس لهم قيم ومبادىء يؤمنون بها، ويأرقون من أجلها مثلك وليس لهم شرف يغارون عليه، ويضحون فى سبيله بحياتهم، والدليل على ذلك أنهم يسهرون الليالى الحمراء جنبا إلى جنب مع ضباط قوات الاحتلال، ويضحكون ويسكرون على أشلاء شعب مستعبد، يعيش فى العذاب..

وتنمو شخصية صفاء بنمو الأحداث فى الرواية، وترى مع كل موقف جديد بعداً من أبعاد شخصيتها، ولكن كثافة الأحزان أيضاً كانت تنمو معها، أحزان أسرتها الصغيرة التى تكفلها، وأحزان أمتها الكبيرة المطحونة من الحكام والسادة الباشوات، والاستعمار الانجليزى.

---

١) الرواية / ١١٢
٢) الرواية / ١١٣.

وكأن الكاتب أراد أن يقول أن أحزان الأسر الصغيرة هى في مجموعها أحزان الأمة الكبيرة.

وهكذا أوضحت رواية " رأس الشيطان " **للكيلانى صورة للمرأة التى تلتزم بمبادئ، وتؤمن بمفاهيم تتعلق بقضايا ومشكلات أمتها الكبرى.** فقد انضمت صفاء إلى تشكيل ثورى سرى يرأسه ضياء الدين، كما أنها استطاعت بقلمها الواعى المخلص أن تبث المبادىء الوطنية فى نفوس الكثيرين من القراء.

كما أكدت الرواية على حرية المرأة واستقلالها العاطفى، باعتبارها شخصية فرد يحقق بحريته السعادة لنفسه وللآخرين، كما يحقق بها رقى المجتمع وصلاحه اللذين يؤديان في النهاية إلى تحرر الوطن وسعادته.

" وقد كان الرومانسيون صادقين في مثاليتهم حين فصلوا بين التحرر الاقتصادى والاجتماعى للمرأة إذ عجزت نظرتهم عن إدراك جميع جوانب الصورة بكل علاقاتها، ومن هنا نراهم ينطلقون عبر موقف أدبى واحد تجاه المجتمع " الظالم " الذي يريد أن يستعبد المرأة، ويحول دون سعادتها العاطفية ويعوق حريتها الاجتماعية"[1].

وقد كانت صفاء في هذه الرواية هى صورة المرأة الباحثة عن الحب الذي يجسد أزمتها في البحث عن الحرية الذاتية وتحقيق الوجود الفردى.

وكما رصد الكيلانى الملامح الداخلية والخارجية لشخصية صفاء، فقد رصد أيضاً الملامح الداخلية والخارجية لشخصية " زوجة عثمان باشا"، فهى شابة جميلة فى الخامسة والعشرين، بينما عثمان باشا فى الستين فارق السن بينهما خمسة وثلاثون عاماً، هو شتاء مكفهر بارد، يجلس دائما إلى جوار مدفأته، وهى ربيع نضر يضج بالحياة، وتكره البرود والمدفأة والنرجيلة والسياسة، كما أنها شخصية تافهة لا تهتم فى حياتها إلا بالمظاهر وتوافه الأمور. وليس هذا فقط بل إنها زوجة خاطئة لا تعرف للشرف معنى، ولا للطهر والعفاف مدلولاً من خلال علاقتها مع بركات الزنارى والتى أوضحتها الرواية فى أكثر من موضع منها " كان بركات الزنارى يجلس مع حرم الباشا فى حجرة واحدة..... وأمامها زجاجة خمر إلى نصفها، وكأسان ممتلئان، وفى عينيها رغبة إثم،

١) صورة المرأة في الرواية المعاصرة /٥٧.

وبركات هو الآخر يجلس فى منامة حريرية، يغزو فؤاده شعور الانتصار، انتصر على الفقر على ضياء الدين وصفاء وانتصر أيضاً على الباشا، وتطلع إلى " الغنيمة " حرم الباشا إنها الآن بين يدية كطفلة صغيرة، أسلمت إليه مصيرها وشرفها وكثيراً من مالها، فما كان من بركات إلا أن مثل دور الذئب فى براعة صفيقة يحسد عليها. "[1].

وهكذا يمضى الروائى مستعيناً بأدوات المحلل النفسى ليشخص سر الأزمة العاطفية بين الباشا وزوجته الشابة.

وبهذا يكون الكيلانى قد أقام علاقة انفصالية بين عالمين متباينين، عالم المرأة الملتزمة المتمثل فى شخصية صفاء، وعالم المرأة المنغمسة فى الخطيئة والإثم والفاحشة المتمثل فى شخصية زوجة الباشا. ونجية عبدالسلام شخصية سلبية لا حول لها ولا قوة لذلك نجدها أقرب إلى النمطية منها إلى النموذج الإنسانى للشخصية الروائية، ومع أنها من الناحية الفنية شخصية باهتة إلا أنها تضيف بعدا جديداً للصورة العامة للمرأة وقضية تحريرها. ذلك أن نجية تمثل الفتاة الوحيدة الغريبة الذليلة التى لا تملك من أمر نفسها شيئاً، والتى سرعان ما تنهار أمام القوة والتهديد والإغراء، فهى بنت الستة عشر ربيعاً، القادمة من كفر العرب بلد الغوازى، والتى وقعت فريسة صغيرة ضعيفة تحت وحش كاسر أصابعه ومخالبه تقبض على العزبة ورجالها وعمالها وقراها بيد من حديد، ومن العسير أن يفلت أحد من قبضته الحديدية المخيفة إنه سلطان حضرة الناظر الذى يجاهر بالرذيلة، ويتمادى فى كبريائه وخطئه، فقد أبقى نجية أسيرة فى بيته، نفس المكان الذى يعيش فيه عياله وزوجته، ونجية الضحية التعسة لا تكف عن البكاء، وهو يهمس فى أذنها : " لا عليك.. لا تفكرى فى شىء، لقد وعدتك بالزواج، ولسوف أتزوجك، هذه الألسن التى تنهش فى سمعتى سوف ترينها مقطوعة لتلتقطها كلاب العزبة، وزوجتى هذه المأفونة سأعرف كيف أحرق قلبها وأذيقها العذاب. "[2]

ونجية أضعف من أن تثور أو تهرب أو تشكو بعد أن فقدت شرفها، لم يكن لديها وسيلة سوى الدموع تذرفها فى محضره وفى غيابه. والمسكينة تنظر إلى المستقبل فى خوف وحذر لا أمل لها سوى أن يتزوجها سلطان. وسلطان لا يكذب،..

١) الرواية / ٢٧٢، ٢٧٣.
٢) الرواية / ١٨٦.

من المستحيل أن يتركها ويتخلى عنها، لأنه لو فعل ذلك فستكون حياتها قد انتهت، ليتها ماتت قبل أن تسلم نفسها له، لكنها لم تكن مستطيعة أن تعصيه، كان قويا منتصراً دائماً، وهى لم تعرف فى حياتها غير التراحيل والوسايا وآلام الغرباء، ماتت فى نفسها من زمن بعيد قوة الاعتراض وغريزة التمرد، فهى أجيرة دائماً، تبيع أيامها وجهدها بالقروش، وتخاف اليوم الذى لا يأتيها فيه القرش، وأورثها الخوف حرصاً زائداً على الحصول على القروش.. فهى تطيع سادتها ورؤساءها، أحيانا تتردد وتتمنع لكنها سرعان ما تنهار أمام القوة والتهديد والإغراء..

وبحديث الكيلانى عن نجية، يبرز أزمة المرأة والمجتمع من جراء التفاوت الطبقى وما يترتب عليه من مشكلات، فالمحرومون يرون أنفسهم أدنى من أن يتمسكوا بمبدأ أو يكون لهم هدف سامٍ في الحياة.

كما أبرزها الكاتب بصفة المتردية التي تسقط في النهاية، وسقوطها ليس عيباً فنياً من الروائى بقدر ما هو انعكاس لحركة الواقع وطبيعته، فلم يكن من السهل على الطبقة العليا المتمثلة في السادة والرؤساء أن تنظر إلى من دونها نظرة مساواة، ومن ثم كان سقوط المرأة تأكيداً لهذه الحقيقة الاجتماعية التاريخية. وهنا تبدو الرواية من أقدر الفنون على تصوير الواقع وعكس حركته، وعكس بعض بذور الاتجاه الواقعى في التصوير ورسم صورة المرأة.

وهذه العلاقة الإنفصالية بين عالم المرأة المتلزمة، وعالم المرأة المتحررة تذكر بمثيلتها فى رواية " **حكايـة جـاد الله** " حيث " ميمونة " زوجة جاد الله التى تحث زوجها على العمل الشريف، والكسب المشروع والمال الحلال، وتحاول أن تمنعه عن أكل الحرام، فهى عكس زوجها الذى يتوق إلى حياة الثراء والغنى، ويتأفف من حياته وعيشته.

وظهر هذا فى أكثر من موقف وأظهرته الرواية[١].

يقول الكاتب فى أحد المواقف وقد دعته زوجته لتناول الطعام :

تقول :

" الطعام جاهز "

١) الرواية / ٦، ٢٣، ٤٧.

رمق طبق الفول والباذنجان المسلوق بنظرة شذراء، وتمتم فى ضيق . " لقد حُكم علينا بالفول والباذنجان حكماً مؤبداً.. أعوذ بالله "

ابتسمت ميمونة ذات الوجه الشاحب القمحى، والعود النحيل وقالت :

" يجب أن نحمد الله يا جاد الله... "

قال فى سخرية وعناد :

ـ " نحمده على ماذا ؟؟ على القحط الأبدى.... الكثيرون الآن يفطرون المربى والقشدة والبيض.... "

" نحمده، على الصحة والستر يا جاد الله.. "

" أنت الفقر نفسه.. "

وأخذ يجوب الحجرة الضيقة بنظراته الخانقة، وأطفاله وهم يتسابقون على اختطاف الخبز، والفراش الرث، والجدران الكالحة، والأثاث القديم المتسخ، والفوضى التى تضرب أطنابها هنا وهناك، كان متبرماً ساخطاً على كل شىء، رافضاً تماماً لما هو فيه. يفكر صباح مساء فى حل لمأساته كما يسميها دائماً، ولا يضيع فرصة إلا إذا استفاد منها، كل شىء فى الحياة له ثمنه، وكل شىء ممكن تغييره إذا توفر العزم والإصرار، المهم النجاح، ولا يهم الوسيلة سواء أكانت قذرة أم غير ذلك وهو ليس شاذاً فى ذلك، معظم الناس أو كلهم . كما يظن . ليس لديهم ضمير، الكل يلهث وراء المال وتحقيق الكسب، أى نوع من الكسب.. وهو لا ينقصه شىء ذو قيمة لتحقيق آماله، لدية القوة والعقل والخبرة. "

وكانت ميمونة فى نظر زوجها جاهلة، ولا تعدو أن تكون بقرة ؟؟ حياتها أكل وشرب وعمل ونوم.. ولا تعرف عن الدنيا شيئاً له قيمة.. إنها كالسجان تؤدى كل شىء حسب النظام والأوامر [1].

١) الرواية / ٢٠.

هذا هو عالم المرأة الملتزمة فى رواية " حكاية جاب الله " ويطل علينا من الجانب الآخر صورة المرأة المتحررة من كل قيد إنها " انتصار " التى يظن الجميع أنها زوجة " محفوظ " المسجون والذى يغرى جاب الله للعمل معه فى تزييف العملة . ولكنها عشيقته، وهى إمرأة فاتنة بضة، تتدفق حيوية وجمالاً، وهى من قامت بشرح طباعة الأوراق المالية الزائفة لجاب الله وبينت كيفية توزيعها وترويجها، ووضحت له حصته من الربح وحددتها ثلث الإيراد. وينغمس جاب الله معها فى علاقة آثمة ولم يكن جاب الله أول ولا آخر من تمارس معه الرذيلة بل هم كثيرين ويتضح هذا من خلال حديثها مع محفوظ فى إحدى الزيارات له فى السجن حين يقول : " أنا لا أرى إلا أنت.. العالم كله ليس فيه سوى وجهك الجميل.. ألا تصدقين ؟؟

" لو كنت صادقا لتزوجتنى "

– " اخفضى صوتك.. الجميع يعتقدون أنك زوجتى.. "

– " يا حسرة.. أنا زوجة لكل من هب ودب.. أنا اشتراكية(١) "

وتسترجع ماضيها وما جرها إلى هذا الطريق المظلم الكئيب.

فتقول على لسان الكاتب :

" حين كنت فى الخامسة عشرة سقطت ضحية العبث.. كان فتى وسيما أشقر الشعر ابن جارة صديقة أمى.. المهم رحلوا عن حينا.. وتركت المدرسة.. وذهبت لأتعلم الخياطة.. لم يكن لدى صبر.. كنت أريد أن ألعب ألهو وأذهب إلى السينما والمتنزهات كان أبى قد مات.. فكرت أن أكون ممثلة.. لعبت بعض أدوار " الكورس ".. ولم أنطق بكلمة واحدة فى أى فيلم من الأفلام ووراء الكواليس أعطونى الوعود الكثيرة.. ودفعت الثمن مراراً وتكراراً.. لكنهم خدعونى.. لهذا أصبحت أحتقر الفن.. وأكره الذهاب إلى السينما.. لم أعرف الفن إلا من الجانب الآخر.. جانب الدعارة.. ولم أعرف أبداً الوجه الآخر، عندما أرى صور النجوم، قصص حبهم وغرامهم أضحك.. لأنى أعرف الحقيقة.. وفكرت أن أتاجر فى السمك.. للأسف الحصص تعطى لمن يدفع أكثر.. وإذا اعتمدت على التسويق بنفسك أمسكوا بك لمخالفة التسعير.. فكرت فى السرقة وجدتها مهنة حقيرة

١) الرواية / ٧٣.

لا جهد يذكر فيها.. قلت أفتح دكاناً للبقالة لكن أين الخلو.. وحصص التموين ؟؟ وجدت كل شئ معقداً أتعرف من الذى أخذ بيدى وأنقذنى من كل تلك العقد ؟؟

قال جاد الله مشدوداً :

" من ؟؟ "

" محفوظ.. وجدت الأمر سهلاً.. وهكذا التقينا يا جاد الله[١] ".

ورؤية الكاتب لشخصية المرأة المتحررة في هذه الرواية يدل على أنها سقطت في الرذيلة دون تدبير أو تخطيط.

وهكذا اتسمت شخصيات المرأة فى هذه الرواية بصفتين . فضيلة ورذيلة . تتبع كل تصرفاتها منها، أو توجهها وجهتها.

ولم يكتف الكيلانى بعرض الشخصيات بصورة عامة أولاً، أو ترك الأحداث تبين جوانبها، بل عمد إلى التغلغل فى أعماق العقل الإنسانى، وتعقب العوامل التى تعمل داخل النفس الإنسانية لا بالنسبة للحدث فى اللحظة والزمن الواحد بل بناء على تعقد ناشئ من الظروف المختلفة.

. وهناك عنصر ثالث استعان به المؤلف كأداة فنية بجوار الشخصيتين الناميتين فى الرواية ليضيف زاوية جديدة تزيد من كثافة القضية الاجتماعية التى عبر عنها فنياً، وهو الموقف الخاطف . الذى يصدر عرضاً من شخصيات هامشية فى الرواية تظهر للحظة " برقّية " ثم تختفى من ذلك شخصية فريدة بنت الجاويش حسنين زميل جاد الله فى العمل، الطالبة بكلية الآداب، التى كانت تقف منذ الخامسة من عمرها وترتدى زيها الإسلامى، وتقف كالملاك الطاهر تؤدى الصلاة[٢] وقد أتى الجاويش حسنين ليدعو جاب الله لعقد قرآن ابنته من مهندس كفء من شركة "عثمان أحمد عثمان "، وقد أصابت تلك الزيجة جاب الله بالحنق الشديد ؛ لأنه لم يصدق أن ابنة السجان حسنين النكرة، الفقيرة، تتزوج هذه الزيجة الحسنة، بل الممتازة. وعند إذ نظر جاد الله إلى ابنته البالغة من العمر اثنى عشر عاماً، وكانت تجلس متسخة الثياب ! "، منتفشة الشعر، تتثاءب وعيناها محتقنتان

١) الرواية / ١٤٧، ١٤٨.
٢) الرواية / ١٥٣.

وهى تحملق ببلاهة فى كتاب موضوع أمامها على " طبلية " خشبية ووجد نفسه . على الرغم منه . يقارن بينها وبين "فريدة" بنت حسنين، وقد أثارته المقارنة، وملأت قلبه بمزيد من الغضب والحنق.

وهكذا تسيطر ثنائية العالمين الملتزم والمتحرر على الكاتب سيطرة تامة، حتى مع الشخصيات الهامشية.

أما فى رواية " **رجال وذئاب** " فقد كانت الدكتورة " فضيلة علام " هى الشخصية الرئيسية للمرأة الصالحة "، فهى شخصية قوية، ملتزمة، ترتدى الحجاب، تتصف بالصدق، كما أنها تنتمى إلى أسرة عريقة ثرية، تخطت الخامسة والعشرين، وكانت أصغر البنين والبنات للشيخ " علام العيسوى "، عينت معيدة فى قسم " الباثولوجيا " بالقصر العينى وكان حلم الدكتور " عادل فتوح " أن يتزوجها لأنها لديها المال والمركز والمستقبل، ولأنه كان يرى أنه بدونها لا يستطيع أن يصعد. وكانت فضيلة تحبه، وهذا ما عبر عنه المؤلف على لسان بطلته. حين قال :

" كانت فضيلة تحبه، حاولت أن تحلل مشاعرها بطريقة حيادية، فلم تستطع، لم تخدع نفسها، إن عواطفها أقوى من المنطق والحسابات لو كان عادل مجرد حالة لما استعصى عليها تحديد معايبه وأخطائه، لقد انفتح باب قلبها له مؤذناً بالدخول، ومن الصعب أن تغلق باب القلب الذي يعمل دون إرادة ليل نهار.[١]"

ومن أجل عواطفها هذه أسقطت فضيلة الكثير من المواصفات التى وضعتها قبل ذلك لشريك حياتها، معترفة بأن عالم المثل لا وجود له على الأرض، فالكمال لله وحده، " كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه " كما يقول الشاعر القديم، ولم تكتف الدكتورة فضيلة بهذا، بل إنها وقفت ضد آراء أهلها عندما طلب الدكتور عادل يدها، وقد أوضح الكيلانى هذا الموقف جلياً حين قال : " حينما علم الشيخ علام العيسوى بأن ابنته فضيلة تبدى ميلاً للزواج من زميلها الدكتور عادل فتوح، فكر بضع لحظات، ثم قال فى هدوء :

" أعلم أنها مسألة مصيرية، ثم إن الفقر ليس عيباً، وهذا الشاب يمتلك من الميزات والمؤهلات . حسب قولك . ما يجعله مناسباً.. وأنت فى حالة من الرشد والعلم والخبرة

١) الرواية / ٣٨.

تجعلك قادرة على الاختيار الصحيح، والقرار المناسب، وتحمل المسؤولية.. ومن ثم فإن الرأى رأيك.. ". وهذا من وجهة نظر الكاتب دليل على قدرة المرأة على تحديد رغباتها.

لكن طبيب النساء والولادة، زوج سميرة الصيدلانية، وأخت فضيلة، كان له رأى آخر، فهو لا يحبذ أن يتزوج طبيب من طبيبة، لأن العمل يستغرقهما معاً، فيتهدد مستقبل الأطفال، كما أنه يحرم الزوجين من الاستمتاع بجمال الحياة..، أما أخوها الوحيد الصحفى سعد، فقد تدخل قائلاً : " التحرى واجب، فلا يصح أن تتزوج أختنا من رجل مجهول الهوية حتى ولو كان عميداً لكلية الطب أو وزيراً،.... فلابد أن نكلف شخصاً كفؤاً بالتحرى عن عادل هذا، وعلاقاته وأسرته، وآرائه الدينية والسياسية وسلوكياته.. وليس فى ذلك افتئات، أو تجن عليه وأنا لى صديق " مخبر صحفى " بوكالة أنباء الشرق الأوسط يستطيع أن يحصل على أدق التفاصيل.. إنه داهية "

لم ترتح فضيلة لرأى أخيها الصحفى سعد، ولعلها خافت أن تكشف لها التحريات عن بعض الأمور المعوقة للزواج، إنها تحبه، والحب الحقيقى علاج لكثير من جنوح الأزواج وتطرفهم وعيوبهم(١). "

ولكن بعد أن أصبح عادل فتوح عضوا لتنظيم أمنى سرى خاص، أخذ يماطل فى موضوع زواجه من الدكتورة فضيلة وكأنه قد استعاض بما وصل إليه فى هذا التنظيم السرى(٢) عن مالها ومركزها ومستقبلها وأسرتها، وهنا ظهرت أزمة البطلة العاطفية، وعلى الرغم من التوتر والضيق اللذين تعانى منهما فضيلة، إلا أنها اعتصمت بالصبر وإن كان القلق يساورها بين الحين والآخر، والشكوك تعبث بمشاعرها وخاصة بعد أن ضعفت اهتمامات عادل العاطفية، وبدا تحمسه للزواج فى بعض الأوقات فاتراً.

وقد حلل زميلها الدكتور رشدى القصاص شخصية عادل وما طرأ عليه من تغيرات آملاً أن ترى صورته الحقيقية التى يخفيها عنها وعن معظم الناس، ولكنها صدته وكان رشدى أكثر الناس معرفة به، وأشدهم التصاقاً، فقد كان يعرف عن يقين أن عادلاً منغمس فى الإثم حتى قمة رأسه، فقد عادت علاقته المشبوهة مع نادية عبد الباقى . وهى الشخصية النسائية الرئيسية الثانية وسيأتى الحديث عنها واتسعت دائرة معارفه من

١) الرواية / ٤٥، ٤٦.
٢) انظر الرواية / ٨٤، ٨٥.

النساء، وخاصة فى نطاق الحزب والوسط الفنى، وعنده الدليل الأكيد على أن عادلاً يكتب التقارير السرية ضد بعض الطلبة وهيئة التدريس، وعلاقته القديمة برشدى كشفت الكثير عن نقائصه الفكرية والأخلاقية وقد نجح المؤلف فى التعبير عن هذه الصورة الحقيقية من خلال الحوار الذى دار بين الدكتورة فضيلة والدكتور رشدى القصاص وقد جاء فيه :

. " عادل يصعد.. ".

. " وماذا فى ذلك ؟؟ ".

. " علامات الاستفهام كثيرة تحيط به من كل جانب ".

. " أهى الغيرة ؟؟ ".

. " استغفر الله بل هو فى وضع لا يُحسد عليه ".

. " ماذا تقصد بالضبط يا رشدى ؟ ".

تململ فى مكانه محرجاً ؟ وقال :

. " يقولون إنه كان وراء حرمان عدد كبير من المعيدين فى الحصول على حقهم.. "

بدا الغضب على وجهها، وهتفت :

ـ لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام الطائش، فالجامعة لها تقاليدها وقوانينها، وعادل ليس أستاذاً فى قسم، ولا عضواً فى المجلس.. "

أطال النظر إليها دون أن تطرف عيناه، وقال :

. " هناك موافقة جهات الأمن.. "

. " تعنى "

رد بسرعة قبل أن تكمل عبارتها :

ـ " بالضبط.. لأن تقريراً موجزاً من عدة سطور قد يعصف بمستقبل إنسان، حتى ولو كان أول الدفعة.. ولهذا فإن معظم الذين حرموا من وظيفة معيد كانوا من الإخوان المسلمين.. "

قالت فى شئ من الحنق :

ـ " أنت من الإخوان.. أعرف ذلك.. ومع ذلك فأنت فى موقعك كمعيد.. ولم تُمس بأذى.. "

. " حدث ذلك منذ زمن.. وما أنا إلا مجرد مسلم يرعى حق الله والناس.. "

قالت ويدها ترتجف :

. " أنا لا أدينك لمبدئك ولكن أنفى الشبهة عن عادل ".

. " هذا طبيعى، فهو خطيبك ".

ـ " ألا ترى يا رشدى أن الناس يخترعون الاتهامات بالنسبة لمن يحقق قدراً من النجاح ؟؟ لكل مبادئه وطريقه فى الحياة قد نختلف فى الرأى.. وهذا الأمر لا غبار عليه إن عادلاً مؤمن بالثورة ومتحمس لها، والملايين يفعلون فعله ماذا فى ذلك ؟؟ "

هز رشدى رأسه قائلاً :

ـ " لم يكن يؤمن بشئ قط فى الماضى، اللهم إلا تحقيق التفوق العلمى.. ألا تعرفين ..؟؟

كانت فضيلة تعتقد أن رشدى يقول الحق، على الأقل فى عبارته الأخيرة(١).

ـ أما نادية عبد الباقى فهى الشخصية النسائية الرئيسية النامية الثانية، وهى حكيمة، فى مثل سن ابنة الأستاذ رئيس القسم " الدكتور زكى فودة "، العجوز المتصابى، وهى تمثل شخصية المرأة اللعوب فى الرواية، أغرت الدكتور " عادل فتوح " وسقط معها وقبل إغرائها، ويتضح هذا من خلال حديثها معه : قالت له : إن حياتها السرية مع الأستاذ راكدة مملة، وإن مجيئه خفف عنها الكثير من سخافات الأستاذ وتصابيه، ولولا ذلك لانفجرت ودمرت معها كل شئ.. " ووجودك أنقذنى من هول الفراغ القاتل الذى سجنت فى عالمه.. أنت لا تعرف كم أحبك !! وإذا فكرت يوماً فى هجرى، فسأدفنك حياً، أتفهم.. إن معظم الرجال هنا على استعداد للركوع أمامى.. لعابهم يسيل كالكلاب.. أقرأ فى عيونهم النهم.. أتعرف ؟؟ ذئاب دعنى أصارحك القول، هناك قلة تأدبت على،

١) الرواية / ٨٦، ٨٧.

ورفضت إغرائى.. وأنا احترمهم.. هناك من انتقمت منهم.. لا أدرى لماذا هذا التناقض فى التصرف.. وأنت بالذات إذا لم تكن قد لبيت دعوتى لقضيت عليك.. أنت منحط مثلى، والتمنع فى هذه الحالة يستفزنى..[١].

فدنيا نادية دنيا كأس ودخان ولهو وخطيئة، وهى امرأة عابثة، بلا قيم، باعت نفسها للشيطان، وداست مبادئ الأرض والسماء.

وقد استطاعت فضيلة بعد أن علمت حقيقة هذا العادل من أخيها سعد أن تتخذ القرار الصحيح. فقد قال لها : " لماذا تأنفين يا صغيرتى الحبيبة من قول الحقيقة ؟؟ لقد حرصت على عدم جرح مشاعرك زمناً لكن لا يمكننى السكوت إن فضيحة نادية عبد الباقى يعرفها الجميع وخطيبك ضالع فيها لكن الأوامر العليا صدرت بتجاهل الموضوع، وعدم النشر[٢] " وقد كان قرارها الصحيح والسليم هو اختيارها للدكتور / رشدى القصاص، وقد كان قراراً وراءه من الدوافع والأسباب ما جعلته أولاً وأخيراً صدق مع النفس.

١) الرواية / ٣١، ٣٢.
٢) الرواية / ١٠٠.

صورة المرأة الصامدة :

" وتمثل " بدرية " داخل رواية " **ليالى السهاد** " صورة المرأة المسلمة التى استطاعت مواجهة مشكلات جسيمة تمثلت فى اعتقال زوجها " عبد القادر " بتهمة الانتماء إلى الحركة الإسلامية بمصر، وطرده من العمل، وارتسم بين يديها طريقان : طريق السقوط والانحراف، وطريق الصمود والثبات، فاختارت الطريق الثانى، وتمكنت من الحصول على عمل شريف لتعول به نفسها وطفلتها " هدى ".

ولم يقتصر صمودها على هذا المستوى، بل عبرت عن حالة رفيعة من الصبر والثبات، وهى ترى زوجها الذى حقق نجاحاً باهراً فى عمله بشركة الحاج " على محمود " يستسلم لضعفه، فيتزوج بـ " صافى " نموذج المرأة المتحررة من رقابة الأخلاق والضمير، الغارقة فى عالم الفن الساقط... " صافى.. لعلها الباب الذى يدخل منه التائبون والنادمون إلى الدنيا الجديدة.... حيث المرح والسرور، وحيث الشطرنج والكؤوس، وعرض الأفلام، والبذخ، والغناء والاختلاط، والمؤانسة، والحب... ".

وبالرغم من وخز هذه المعاناة، كانت تتسلح بالمقاومة النفسية، وتتقرب من زوجها لتمسح عنه آلام ضعفه ومعاناته.. إلى أن انتصرت، وكُلّلَت جهودها بالنجاح، حيث يستيقظ " عبد القادر " من غفلته، فيطلق زوجته الثانية " صافى " ؛ لأنها لا تمت بصلة إلى عالمه الفكرى والسلوكى المؤسس على صفات الإلتزام ومبادئ الأخلاق.

أما رحاب فى رواية "**أهل الحميدية**" فهى طالبة بكالوريوس الطب، بنت طيبة، مخلصة، عاقلة، مؤمنة، تقية، نقية طاهرة، قوية الاحتمال وفاتنة، فهى امرأة فاضلة بكل المقاييس، وزعت بعد تخرجها على قسم النساء والولادة، وهو قسم ملئ بالمشاكل والصراعات المحزنة بن أعضاء هيئة التدريس مما يدعو إلى الأسى والحزن.

وقد كان هناك مشروع زواج بينها وبين دكتور " عبد المغيث " الذى رسب فى البكالوريوس، بالرغم من نبوغه وتفوقه ؛ لذا فقد أصيب بخيبة أمل، وحاول الانتحار، ولكن أعيد تصحيح بعض الطلبة الذين تظلموا ونجح بعضهم، وكان منهم وكانا فى حكم المخطوبين بعد قصة حب دامت ثلاث سنوات ولطالما تمنت أن ترسب وينجح هو قالت له ذات مرة :

" تمنيت أن تنجح أنت، وهذا حقك، وأن أرسب أنا، لكن ليس الأمر بيد أحد منا " ووقعت كلماتها فى قلبه راحة ورحمة وحباً.. كان يستمع إلى كلماتها وهو موقن أنها لا تنافق أو تخدع أو تتظاهر البراءة فى وجهها والصدق فى عينيها، والإخلاص فى نبرات صوتها..[١]

وكان عبد المغيث يحبها يقول لصديقه راضى " نعم.. إنها الأميرة التى تجلس على عرش قلبى، ولا أعتقد أن فى الدنيا بطولها وعرضها مثلها[٢]".

ولكن يقع " عبد المغيث " فى مأزق حين يتوجه " متولى العشرى " شيخ البلد إلى داره بعد نجاحه فى بكالوريوس الطب، ويخطب وده وود أبيه الفرارجى، وكان من قبل لا يكترث ولا يهتم بالفرارجى وأمثاله، فهو متغطرس مستغل، ويعامل الناس بتعال واحتقار ولكن " تفاحة " زوج الفرارجى أدركت ما يرمى إليه هذا الرجل وهو زواج وحيدها من ابنته ملكة، ذلك الغزال الجميل الثرى فهى " زهرة من الجنة تتألق فى روضة إبليس[٣] فهى ملاك نبيل، ولكن أباها شيطان مريد، ولم يرزق سواها ووهبها عمره وحياته وماله، وفضل أن تعتصم بالبيت بعد أن نالت الشهادة الإعدادية بتفوق.

وكانت ملكة شبه مخطوبة لرمضان ابن عمها، ابن العمدة، وما إن علم بما يدور من كلام حول زواج الدكتور عبد المغيث من ملكة حتى هاج وماج وثار، وكان بينهما لقاء بين الحاج " متولى العشرى " والعمدة الحاج " ماجد العشرى "، وكان اللقاء يسوده التوتر والقلق.

ـ وتبلغ أزمة حواء أقصاها حين تعلم بخطبة خطيبها لابنة شيخ البلد، وتكاد تسقط على الأرض وهى تقول : " لقد انتهى كل شئ. لقد فسد الزمان والمكان[٤]. " ولم يعد فى هذه الدنيا وفاء ولا صدق ولا حب، عالم خالٍ من السعادة والجمال ولكنها تتمالك نفسها بحكم إيمانها، وتلجأ إلى ربها فتتوضأ وتصلى. ولا تجد من يقف بجانبها سوى زميلها الدكتور راضى عبد الباقى. الذى قال لها وهو يدارى أساه :

١) الرواية / ٣٧، ٣٨.
٢) الرواية / ٧٧.
٣) الرواية / ٥٨.
٤) الرواية / ١٠٩.

" هونى عليك يا أختنا الفاضلة فليس هذا نهاية العالم، ولعل الله أراد لك الخير "[١]

قالت بغضب :

" بالتأكيد. أنا واثقة من ذلك كل الثقة "

ولم تكن رحاب منعزلة عن المجتمع وما يدور فيه وخاصة بعد حملة الاعتقالات التى انصبت على الاتجاهات الحكومية واليسارية، وكان النصيب الأكبر على أصحاب الاتجاهات الإسلامية التى تمثلها جماعة الإخوان المسلمين التى أوقف نشاطها منذ أكثر من عشر سنوات، فقط وقفت أمام زملائها من الأطباء والطلبة فى أحد المدرجات المكتظة وقالت:

" إننا نعيش فى عصر الغابة، برغم القرارات الاشتراكية ومشاريع التصنيع، وامتيازات الطبقة العاملة، وكسر شوكة الاقطاع والرأسمالية والرجعية، إن جميع المودعين فى السجون والمعتقلات اليوم من أبناء الطبقة العادلة، ومن صغار الموظفين والملاك، وكيف نتباهى بالتحرر من قبضة الأمريكان، ونتصدى لإسرائيل، ثم نركع تحت أقدام الاتحاد السوفيتى، وننسى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين... " [٢]

وقد عرضّها نشاطها السياسى للوقوع فى قبضة رجال الأمن وأوصلها إلى الاعتقال. وقد وقفت موقف الشجعان الأحرار، ولم تستسلم للقهر والهزيمة، بل أطلقت كلمة الحق دون خوف، ولم تفكر فى أية عاقبة. فرحاب امرأة صامدة مجاهدة باعت الدنيا، وجاهدت فى الله حق جهاده وآثرت ما يبقى على ما يفنى، وواجهت الظلم بسواعدها الواهنة، ولم تفلسف ضعفها، وهكذا كان زميلها الدكتور راضى. فهم مجتمع الصفوة الأتقياء الأنقياء الذين " صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً "

- الذين يصلحون حينما يفسد الناس. وهذا ما قاله عنهم زميلهم الدكتور عبد المغيث لزوجه ملكة، التى تزوجها بعد أن تم القبض على رحاب وأودعت المعتقل وقربها هذا من زميلها الدكتور راضى طبقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : " الأرواح جنود مجندة، ما

١) الرواية / ١١١.
٢) الرواية / ١١٦.

تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف " واتفقا على الزواج وبدآ عهداً جديداً، وسافرا معاً إلى العمل بالبحرين[١].

صورة المرأة الضحية :

أما في رواية "**الذين يحترقون**" فقد مثلت كاميليا نموذجا للمرأة ضحية التفكير التقليدى المنحرف عن التربية الإسلامية فهى من أسرة فقيرة، أمها تربو علي الخمسين، وأخاها يعمل حمالاً بالميناء، ولها أخوين صغيرين، وجميعهم يعيش في مسكن متهالك متواضع في حى " بحرى "، وضيق ذات اليد يلازمها منذ فجر نشأتها حتى الآن، ولطالما حلمت بحياة أفضل، لكن مرتبها الضئيل لم يلبس أحلامها ثوب الحقيقة، وأملت يوماً ما أن تتزوج رجلاً ثرياً تعطيه الشباب والجمال والمتعة وتأخذ منه المال، لكن هذا الرجل لم يأت بعد، ولم يحم حولها غير فقراء مثلها، ابن خالها ترزى صغير، ابن الجيران عامل بسيط بشركة " سباهى "، وسعيد شاباً ظريفاً مقبولاً وذا مستقبل وقلبها يميل إليه، لكنها مع ذلك لا تفهمه كما تشتهى في نظراته حنان، تستشف من كلماته الميل إليها وتلحظ في تحركاته الإهتمام بها، ولكن هل هذا معناه الرغبة في الإرتباط الدائم أم أنه مجرد تسلية، وإشباع رغبات كامنة في قلبه ؟؟ لقد أقسمت ألا تعطى قلبها إلا لمن يتوسل ويؤكد حبه بيقين لا شك فيه، بعد أن يئست من مجئ الزوج الثرى، وهى الآن تتلفت حولها، لا جديد في حياتها هى كما هى منذ سنوات، وأتعس كثيراً عن ذى قبل كلمات الإعجاب والثناء تطاردها، وعبارات الغزل تطرق أذنيها، وأطياف الحب تداعب أحلامها وخيالها، وليال سوداء فى الماضى تورثها الرعب، وأسرار مجهولة تطويها في قلبها تؤرقها، أما الزواج فإنه لم يزل بعيداً والمسئوليات المعيشية تأخذ بخناقها، ومع هذا الأسى والضيق تشعر أن كيانها يلتهب، إن في قلبها أشواقاً عارمة، تشتهي الرجل والمتعة والإنطلاق دائماً، وهي بالاختصار تشعر بالحرمان من كل شئ رغم أن كل شئ بين يديها[٢].

وكاميليا كانت واسعة العينين، تطل منهما صراحة وجرأة وكان عندها استعداد للمعابثة، فقد حاولت أن تستدرج الدكتور "محمد صادق" لممارسة الرذيلة معها أثناء

١) انظر الرواية / ٢٥٢.
٢) انظر الرواية / ٢٩، ٣٠

عملها معه بالعيادة، ولكنه لم يكن يفكر إلا في زوجه التى تعيش في القاهرة بعيداً عنه مع طفليها، وتحيا على أمل لقائه.. تنتظره دائماً وتتحرق شوقاً إليه.

واستطاع أن يحولها باحترامه لمبادئه ولأسرته ولنفسه من لعبة الحب والهوي إلي أن تدرك حقيقة أهدافه فهو إنسان محترم، تنطلق كلماته من قلبه، يحترم مبدأه، ويحترم أسرته، ويهب نفسه للناس ولا يمكن أن يسلم زمام قلبه للشيطان.

وقد كانت صدمة الدكتور محمد لها بداية عجيبة لحدث هام في حياتها تقول :

"... كان غامضاً عندما جاء، لكن سرعان ما فهمناه وفهمنا، ارتطم بالعقبات فقابلها في وضوح وشجاعة ونبل. لم يحاول أن يضرب بيده، بل قاوم بنظافته ومنطقه المستقيم، كان باستطاعته أن يحرق أعداءه لكنه ابتسم ولم يغلق فى وجههم الطريق للعودة إلي الجوانب الطيبة في نفسهم.. وأنا حاولت إغراءه.. كانت حربى ضده من نوع خبيث.. لكنها انتهت نهاية غريبة انتهت بحبي لهذا الرجل.. حباً أخوياً سامياً مثل حبك له تماماً، وبدت أسرته .وهو علي رأسها في نظرى . أسرة مثالية ذات أريج رائع يضوع بالحب والسلام والجلال عند ذاك لمت نفسى وأنبتها، واستعرضت ما فات من ماضى، وحلمت بالصفاء والطهر والحياة الكريمة وبأسرة كأسرته، وأطفال كأطفاله، ووضح كوضوحه، وإخلاص يشابه إخلاصه."[١]

كما أبرزت الرواية صورة المرأة المخلصة، متمثلة في زوجة الدكتور محمد، فهى قابعة فى بيتها مع طفليها، لا يكاد يسمع لها أحد صوتاً، نادراً ما تقف بالشرفة أو تنزل إلى ساحة المستشفى، يقولون عنها هادئة مهذبة، لاشقاق بينها وبين زوجها، تستقبل زوارها مهما صغروا في أدب جم وتبادل زياراتهم دون تفرقة، فليس عيباً أن تزور الممرضات في مسكنهن، ولا يشينها أن تنتقل إلي سكن المدرسات وتجاملهن وتمرح معهن كأخوات لها، درويشة مثل زوجها تماماً، لا تحيط نفسها بجو من الرهبة والسلطة، ولا تتصنع الكبرياء....

١) الرواية / ٣٠٣

أما في رواية "**ليل وقضبان**" فإن شخصية " عنايات هانم " تظل أيضاً نموذجاً للمرأة ضحية التفكير التقليدى المنحرف عن التربية الإسلامية، فهى سليلة أسرة عريقة تتمسك بالتقاليد، وعندما نالت " البكالوريا "، أرادت أن تتم تعليمها لكن أباها آثر أن يمضى فى إجراءات زواجها، فاضطرت إلي الخضوع للأمر الواقع، وتم زواجها من مدير السجن " عبد الهادى بك " الذى كان عقيماً، وقد صنع منها هذا الزواج الغريب شخصية مزدوجة السلوك، " فهى أمام الناس الزوجة الطائعة الوفية التى يمدح الناس سولكها، ويثنون على رقتها وأدبها، وهى في الخفاء أمام " فارس " المسجون، الخاطئة التي لا تعرف للشرف معنىً، ولا للطهر والعفاف مدلولاً، والتي يصل بها الأمر، فى سبيل شهواتها أن تفكر في قتل زوجها حتى يخلو لها الجو مع عشيقها.

وهكذا أغرت " فارس " المسجون واستدرجته إلى أن مارس معها الرذيلة دون علم زوجها المريض. إن عنايات تختزل . هنا .صورة العديد من نساء مجتمعاتنا العربية والإسلامية، من اللواتي رُحْنَ ضحية سوء التعامل وإسكات أصواتهن باسم الدين، والدين براء من هذا السلوك الشائن، والإنسان . أي إنسان . عندما يستيقظ من غفلته، ويشعر بأنه كان ضحية، فليس أمامه إلا أن يصحح المسار، إذا بقيت له فرصة، أو الانتقام بما يتاح له من وسائل وأساليب، ولم يكن في استطاعة " عنايات " أن تصحح المسار فارتمت في أحضان الخيانة والرذيلة.

وهنا يظهر الكاتب الثنائية داخل الشخصية الواحدة، فعنايات كانت تريد أن تكون نموذجاً طاهراً له كيان وشخصية وبيت تحافظ عليه، ولكن ضغط أبيها عليها حولها إلى شخصيتين ممزوجتين شخصية طاهرة نقية عفيفة أمام الناس " عالم المرأة الملتزم عند الكيلانى "، وشخصية خائنة خاطئة خائفة، لا تفكر إلا في شهواتها وملذاتها، " عالم المرأة المتحرر عند الكيلانى "، والكاتب في هذه الرواية يصر على أن المرأة سقطت في الرذيلة عن قصد وتعمد، بل إنها سعت إليها برغبة حقيقية.

صورة المرأة المكافحة :

أما في رواية "**الربيع العاصف**"، فتظهر شخصية " منال عبد المجيد " مع بدايات الرواية، ومنذ الوهلة الأولي ندرك أنها تعمل حكيمة ومنقولة من القاهرة إلي قرية شرشابه لتعمل بوحدتها المجمعة، وهي مؤسسة جديدة لم يمض علي افتتاحها سوي أيام قليلة، وقد

كانت منال ذاهبة إليها بشعور الذاهب إلي مدينة الأموات رغم أنها ترى الأحياء يروحون ويجيئون، كانت تعتقد أنها تساق إلى حتفها سوقاً، وكانت هذه أول مرة تذهب فيها " منال " إلى الريف، فقد قضت كل سنى حياتها في القاهرة، في حي السيدة زينب دراستها الابتدائية، وعامين فى المدارس الثانوية، ثم عدة أعوام في مدرسة الحكيمات بالقصر العينى حيث تعلمت فن التمريض وعلى الفور تم تعيينها في مستشفي الوحدة المجمعة بهذه القرية التي تدلف إليها لأول مرة في حياتها(١).

وهى امرأة جميلة فاتنة فاحمة الشعر، بضة، بيضاء البشرة، نحيلة الخصر، منتفخة الردفين، صدرها يبرز إلي الأمام في كبرياء وتحد وكأنه منصة عالية، ذات أنامل رقيقة مخضوبة(٢)، وكل حركاتها تنبى عن الرشاقة وخفة الروح، وتوحى بالحياة.. بالبعث.. بالأمل المنعش الكبير(٣)، وقد طار اسمها إلى كل بيت، وعشقتها القلوب قبل أن تراها العيون، وأصبحت مطمعاً لكل من عبد المعطى الباشكاتب، والمعلم حامد المليجى صاحب المقهى، وشيخ البلد الحاج على، وطبيب الوحدة. " وهم جميعاً تستعبدهم غرائزهم الدنيا، وهى غرائز مريضة منحرفة تجد لها متنفساً على حساب فتاة مسكينة وحيدة لا حول لها، فيحاول كل منهم امتلاكها بوسائله الخاصة. "(٤)

فالباشكاتب، تتغلب عليه النزعات الشريرة والرغبة في الإيذاء إنه . حقاً . يدافع عن الحقوق المسلوبة، ويشهر بنائب الدائرة اللص، ويستنجد بالمسؤولين لإنقاذ القرية من المجاعة، لكنه أيضاً " إذا ضايقه أحد، أو عرقل له أمراً، أو خيب له رجاء، لا يعدم عبد المعطي حيلة كي يوقع أحدهم في ورطة " وهو " أيضاً : " يكره من هم فوقه حتى لكأنه يظن أنهم سبب فقره وسبب مرضه "، وهو " دؤوب حقود شرس بطبعه ".

وطبيب المجمعة : " وسيط خبيث يأخذ أجرة الكشف الطبى ويحتجز لنفسه السمسرة المعهودة "

١) انظر الرواية / ٤
٢) انظر الرواية / ١٧
٣) انظر الرواية / ١٩
٤) الرواية / ١٨٩

والمعلم حامد تاجر المخدرات، ومتعهد يغش المرضى من أبناء قريته، خيانة تكعيب، ويقدم الرشاوى للموظفين والحاج على داهية جبار بماله، وبسلطان أخيه حكمدار البحيرة وبقطاع الطرق الذين يجمعهم حوله.

وهكذا اصبح مسألة جمال منال وحبها أمر مشاع. الكل يعشقون جمالها، ويحبونها ويبتسمون لها، ولا يرفضون لها طلباً.

فقد تقدم الحاج على لخطبتها، ولكنها لم تفكر فيه إطلاقاً، فهو أبعد ما يكون عن روحها وقلبها وثقافتها، كما تقدم لها المعلم حامد المليجى والباشكاتب، ولم يكن إحساسها تجاههما يختلف عن إحساسها تجاه الحاج على، ويظهر إحساسها جلياً من خلال حديثها مع عبد المعطي قائلة :

" أيها الأغبياء.. أنا أربى أيتاماً.. أحافظ على كيان أسرة.. ثم أنه لم يمض على بينكم أكثر من شهرين.. وأنت يا عبد المعطي.. ألم تجرب الفقر.. ؟؟ كلكم ذئاب وتشتهوننى.. فاكهة جديدة.. يسيل لعابكم من أجلها.. تقليعة مثيرة تلفت النظر لو كان لى أسرة وعصبية لقطعوا ألسنتكم."(١)

وهكذا تستشعر منال أنها فى هذا الوضع كأنها زهرة غريبة غرست فى تربة غير تربتها وفى بيئة غير بيئتها. كما يشعرنا القاص بدور المرأة المكافحة التي تضطرها ظروفها إلى الكفاح والعمل من أجل المحافظة على كيان أسرتها، وسد رمقها، ولكن المجتمع لا يتركها لحالها.

وهكذا تنتهى الرواية بسفرها من القرية وزواجها من الطبيب.

وكما أبرزت الرواية صورة المرأة المدنية المتمدنه متمثلة في الحكيمة " منال "، أبرزت صورة المرأة الريفية المتأخرة من خلال زوج المعلم حامد، والذى قدمها لمنال بقوله " خادمتك أم العز " زوجتى.. الأشغال الشاقة المؤبدة التي حكم بها أبى علىّ رحمه الله.. زواج بدل..

وهى زوجة طيبة صابرة وفية لزوج منحرف عابث، تتلقى اهانات زوجها بابتسامة لا تعرف الحقد قائلة : يطول عمرك ياسى حامد، وهى تصر على أنه رجلها، وأبو عيالها،

١) الرواية / ١٣١، ١٣٢

وحين تطرى منال جمالها يقول : إنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم.. مثل النعاج تماماً، ثور اللّه في برسيمه.

فهى ريفية ساذجة جميلة، لا تثور من جارح الكلام، أو تتألم لوقع سخريات زوجها نعاج، ثيران، أشغال شاقة. تلك هى التشبيهات التي يطلقها عليها زوجها، وهى تبش له، وتبتسم لسياطه القاسية، وكأنها تستمع لعبارات الغزل الرقيقة التي تبعث النشوة والسعادة بين جوانحها.

وهى أيضاً امرأة مكافحة، ولكن كفاحها من نوع آخر، فهى تكافح للحفاظ على أسرتها وبيتها وأولادها، ولذا فهى تتحمل كل سخريات وتهكمات هذا الزوج القاس. والكاتب يقدم هذا المعنى في لوحات جزئية يربطها وصف المشاهد، الساخط على واقعه.

كما أبرزت الرواية مفاهيم القرية وتقاليدها العريقة تجاه المرأة. " فالمرأة التي لا راعى لها أو زوج إذا تحدثت فهى فاجرة، وإذا مشت في الطريق وحدها فهى ضعيفة وإذا كان معها أحد فهى عاهرة. "[١] والناس في القرية " لا يأخذون كلام النساء مأخذ الجد.. "[٢]

" والمرأة التي يرغبون فيها ينتزعونها انتزاعاً، يختطفونها على أسنة الرماح "[٣]

صورة المرأة المجاهدة :

وتمثل كل من " فاطمة " في رواية "**عذراء جاكرتا**"، و " ياقوتة " في رواية "**اليوم الموعود**"، صورة المرأة المجاهدة، وإن تفاوتت مجالات التضحية، وتنوعت أساليبها لاعتبارات موضوعية، إذ أن "ياقوتة " تضطر، كما يقول القاص، إلى زيارة الأعداء الصليبيين في خيامهم، وترقص في حضرتهم، موهمة لهم بأنها امرأة ساقطة، لا علاقة لها بالسياسة وشؤون الحرب، لكنها في الواقع، تمثل عينا للقائد فخر الدين، تنقل إليه أخبارهم، وتطلعه على مخططاتهم وتحركاتهم الهادفة إلى القضاء على المسلمين.

---

١) الرواية / ٦٧
٢) الرواية / ٨٣
٣) الرواية / ١١٩

أما " فاطمة " فإنها نموذج الجهاد الفكرى والدعوى ضد الشيوعيين في " جاكرتا " عاصمة " أندونيسيا " وقد تُوّجَ جهادها بنيل الشهادة. يقول القاص في آخر الرواية : " وعاد أبو الحسن . خطيبها . وعاد حاجى محمد إدريس . والدها .. لكن فاطمة لم تعد إلا في صندوق خشبى... وملابسها البيضاء الطاهرة مخضبة بالدماء... لقد انطلقت في الظلام رصاصة آثمة أودت بحياتها... سقطت عذراء جاكرتا شهيدة... وفى يدها وردة حمراء ذات أشواك... وعلى ثغرها ابتسامة رضى... وفى جيبها مصحف صغير.. تبلل أهدابها الطويلة دمعة عشق خالدة... "[١]

صورة المرأة الوطنية :

وفى رواية "النداء الخالد" تشكل ملامح " صابرين " ابنة حضرة العمدة " خلاف عبد المتجلى " نموذج المرأة الوطنية ويظهر هذا بوضوح عندما راحت تحمل في يدها أقلاماً وأوراقاً، وأخذت تمر على نساء القرية لتجمع بصماتهن وتوقيعاتهن للثورة ضد الاحتلال الانجليزى.[٢]

فهى ليست فتاة ريفية ساذجة، بل هى شجاعة وثورية كما أنها تمتاز بجمال رائع، ثم إنها تلقت مبادىء القراءة والكتابة منذ صغرها على يد محصل الضرائب في القرية " لطيف أفندى " وأصبح في مقدرتها أن تقرأ الجرائد والكتب كالمأثورات النبوية، وقصص الأميرة ذات الهمة والزير سالم وسيف ابن ذى يزن وبعض الصحف والمجلات، وقد خلقت لها الكتابة والقراءة عالماً جميلاً رائعاً، وخاصة بعد أن احتجزها أبوها داخل أسوار البيت بعد أن بلغت سن النضج ولم تعد ترى الناس إلا من خلال قضبان النوافذ والأبواب شبه المغلقة.[٣]

وكانت علاقتها " بأحمد شلبى " علاقة شائكة منذ البداية فقد كان هناك عداء تقليدى بين الأسرتين.. يشبه إلى حد كبير ذلك العداء التاريخى بين والدى " روميو وجولييت " ثم إن تقاليد القرية وأخلاقياتها تأبى أن تقوم علاقة عاطفية بين فتى وفتاة . لأن مثل تلك العلاقة على حد تعبير الناس فساد وانحلال ورجس من عمل الشيطان.

---

١) الرواية / ١٦٧.
٢) انظر الرواية / ١٥٧.
٣) انظر الرواية / ٦٨.

ولكن توثقت عرى المودة والألفة بين الأسرتين.. أسرة العمدة وأسرة " شلبى " بعد قطيعة طويلة، وتبادلا الزيارات ولكن " صابرين " خطبها ابن خالها، وعجزت عن التصريح لأبيها بحقيقة مشاعرها تجاه أحمد بادىء الأمر، وإن كانت أمها تعلم بخلجات نفسها. ولكن إزاء الثورة التي عمت أرجاء القطر، بدأت صابرين تضيق بالسجن الذي تعيش فيه، وبالتقاليد القاسية التي ترزح تحت عبئها، وبدأت تشعر بثورة أخرى تثور في دمائها تناديها بأنها إنسانة حية ذات كيان يلتهب ومشاعر وأفكار، ومن حقها أن تعطى الحرية للتعبير عن نفسها في حدود الأخلاق المرعية. ومن هنا أرسلت إلى أحمد خطاباً تقول فيه :

" أخى أحمد.

يجب أن أكون أنثى حرة متعلمة

ويجب ألا أساق إلى بيت الزوجية قهراً، لأعيش مع رجل لم يختره قلبى.. لقد قررت أن أتزوجك أنت.. ولا أتزوج ابن خالى.. ولن أستسلم مهما كان الأمر.. إن الذي يعوقنى الآن عن مواجهة أبى بالحقيقة، هو أنه مريض مسن، والناس مشغولون بالثورة في كل مكان.. ثم إنى أحتاج لشجاعة خارقة كى أقول كلمة الحق.. لكن ربما لو تقدمت لى طالباً يدى من أبى.. فسأجد في نفسى الشجاعة للإقدام على ما اعتزمه.

عزيزى أحمد

ألم أقل لك إن الثورة شاملة ؟

لابد من التغيير.. لابد.. وإلى اللقاء

" صابرين " [1].

وكأن كاتبنا يريد أن يربط بين الثورة التي عمت أرجاء القطر والثورة التي شعرت بها بطلة روايته بداخلها كما بين القاص أن الظروف السياسية التي مر بها المجتمع جعلت حركة المرأة وتحررها مواكبة لحركة الوطن، لذلك فإن من السهولة بمكان الربط بين الفكر الذي ينادى بتحرير المرأة، وينادى بتحرير الوطن. ومن هنا نرى أن قاسم أمين كان على وعى حين أكد أن تحرير المرأة ليس مطلباً إنسانياً فحسب، بل إنه ضرورة

١) الرواية / ١٦٨.

للتقدم القومى. ويؤكد في أكثر من مجال أن المصريين إذا أرادوا " أن يكونوا أمة حية راقية متمدنة، فلنا أن نقول لهم : توجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التي تشكون منها وتصعد بكم إلى أعلى مراتب التمدن كما تشتهون، ألا وهى تحرير نسائكم من قيود الجهل والحجاب"[١].

صورة المرأة الضعيفة :

كما أظهرت الرواية صور المرأة الضعيفة المستكينة التي تعتمد على زوجها، فهو لها كل شيء في الحياة، من خلال زوجة " عبد العزيز شلبى "، فقد وقفت تلطم خدودها، وتشق ثيابها، وتلطخ وجهها ويديها بالطين، وقد بدت المسكينة وكأنها قد أصبحت فريسة لنوبة من نوبات الجنون المدمر[٢]. لذا فقد ذهبت إلى الضابط الانجليزى، وقالت له إن زوجها مظلوم ومتقدم في السن.. ومن أثرياء البلد وكبرائها، وقد أخذوه على إثر دسيسة دنيئة ضمن الذاهبين من العمال إلى الميدان ولم يلفت نظر الضابط الإنجليزى إلا كون " عبدالعزيز شلبى " من الأعيان الأثرياء وكان صريحاً حين اكتفى بمئتى جنيه وانحنت المرأة على يده تقبلها[٣].

وصورة " أم الخير " وهى سيدة طيبة لجأت إلى الخواجة " ينى " كى يقرضها ثلاثين جنيهاً، لأن ولدها كان مريضاً بداء الكبد والاستسقاء، وظل يعالج منه عاماً ونصف عام دون جدوى، وأصبح المتجمد عليها الآن يبلغ التسعين وهى لا تملك إلا فدانين، وابنها مات قبل موسم جنى القطن بشهر واحد، وجاءت " أم الخير " بعد أن استدعاها الخواجة تبكى بحرقة وتقول :

مات ولدى يا خواجة.

. كل من عليها فان يا ست.. ألا يقول قرآنكم ذلك ؟

أطال الله عمرك.

. إنى في ضائقة والمبلغ مستحق الدفع

١) المرأة الجديدة / قاسم أمين / ط / دار المعارف / ٢٧٧.
٢) انظر الرواية / ٧، ٨.
٣) انظر الرواية / ٣٥.

. إن محصول نصف فدان من القطن لا يكفى للسداد

. وما حيلتى ؟

. ألا تصبر ؟

- الدفع.. أو المحكمة.. أو بيع الأرض. وأنا مستعد أن اشترى الفدانين بمئة جنيه، سأعطيك عشرة بالإضافة إلى التسعين التي في ذمتك.. هيه ؟ ماذا قلت؟

ولم تجب بغير الدموع [١]

أما في رواية "**مواكب الأحرار**" فقد تنوعت صورة المرأة تنوعاً كبيراً بين الزوجة المخلصة الضعيفة الخائفة على زوجها وبيتها وولدها وبنتها وحياتها، متمثلة في زوجة الحاج " مصطفى البشتيلى " أحد كبار التجار وقد كانت له أطوع من بنانه، قلّ ما تسفه له رأيا، أو تعترض على أمر من الأمور، فزوجها هو سيدها، وهى تؤمن أنه يعرف أكثر مما تعرف، وخبرته في الحياة أثرى من خبرتها، ثم إنه أولاً وأخيراً رجل، وهى لا تستطيع أن تنسى وضعها البديهى المعروف كأنثى في منزلة التابع المطيع، ولكنها خرجت عن هذا الوضع المألوف فجأة وأقامت الدنيا وأقعدتها، وخاصة بعد أن رفض زوجها رأيها في الهجرة بعد أن وقعت الواقعة واحتلت فرنسا القاهرة بقيادة نابليون، وفوجئت بالحاج مصطفى يجند ابنه الوحيد، ويدّسه ضمن القوات المحاربة بل فى الصفوف الأولي تحت إمرة " إبراهيم بك" الذى عسكر بجيشه عند "بولاق" معنى ذلك فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث. ولم يكتف بذلك، بل دسَّ بنفسه هو الآخر ضمن قوات البحرية على إحدى السفن الراسية فى الميناء.. والمصيبة من وجهة نظرها أيضاً أنه لم يرحم ابنته زينب، فقد اختطف خطيبها هو الآخر، ودفعه إلى الميدان مع ولده الحسين..

ولم يكتف الحاج مصطفى بهذا، فقد اشترى بارود وسلاحاً بجزء كبير من ماله ووزعه على القوات الشعبية التى تخوض المعركة جنباً إلى جنب مع المماليك، وتخلص من كل المخزون لديه من البضائع بأبخس الأثمان، كى يساهم في تقديم الأقوات للمحاربين[٢].

١) الرواية / ٦٥.
٢) الرواية / ٥٢

وهذا من وجهة نظر الزوجة يفوق الجنان ؛ لذا عندما بدت الدهشة على وجه زوجته صرخ فيها محتداً :

" أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله فى صدر الإسلام وما عند الله خير وأبقى، والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودى تفكرين في شئ سوى بأولادك وبالمال والخنوع للحياة الدنيا، حتى أكتنز بدنك، وأصبحت كخنزير كبير.. يا للمهزلة !

منذ متى تعترضين مشيئتى ؟ لا تنسى يا امرأة أننى هنا الرجل رب البيت.. أتفهمين ؟.. "[1]

ولم تكن زوجه ـ فى مثل تلك الأيام ـ بقادرة على أن تهضم كلماته، ولم يكن فى مقدورها أن تقتنع، مهما كان لهذه الكلمات من قوة المنطق والإقناع.

لقد كانت الزوجة تفكر في أولادها وزوجها ومستقبل الأسرة تفكيراً عاطفياً، فضلاً عن أن طبيعتها الخاصة ـ برغم عشرتها الطويلة لزوجها ـ لا تتعلق كثيراً بهذه المثاليات الكبرى، كالتضحية والفداء والجهاد وما إلي ذلك.. لعلها كانت أكبر من تفكيرها واستعدادها، وخاصة أن مثالياتها لا تخرج عن العطف على المساكين، والبر بالأقرباء والحدب على مآسى الناس، كل ذلك فى حدود معقولة حيث لا إسراف ولا إفراط.. أما أن يبلغ بها ذلك مبلغ التضحية بالولد والزوج وكل ما يملك زوجها، ومستقبل ابنتها، فهذا مالا تحتمله، ولا يمكنها أن تقتنع به.

أما صورة زينب ابنة الحاج مصطفي البشتيلى، فهى صورة رائعة للفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً، فهى فتاة وادعة، قليلة الكلام ذات وجه مثلث تزينه عينان واسعتان سوداوان، وفم دقيق، ولسمرة وجهها جاذبية حلوة، وميلها إلي الصمت يسبغ عليها رونقاً أخاذاً، ويزيد من شدة التعلق بها، والتفكير فيها[2].

وكان سلوكها تجاه الأحداث ينبى عن السلبية المطلقة، فهى لا تمالئ أمها ولا تميل إلى رأى أبيها، وكان لها عالمها الخاص الذى تعيش فيه، والذى لا يقتحمه أحد ليعرف

١) الرواية / ٥٢
٢) انظر الرواية / ٥٤

أسراره، وذكرياتها ضئيلة، ومنذ زمن بعيد لم يصرح لها أبوها أو أمها بمغادرة المنزل، شأن بنات الأسر الكريمة، ولا تختلط بأحد من الزائرين سوى النساء والفتيات من أمثالها، وعندما تمت خطبتها لمصطفي الفرماوى، تناوبتها مشاعر جديدة، ثرية بالإنفعالات والأشواق والأحلام، على الرغم من أنها لم تنفرد به مرة واحدة، أو تحظى بالحديث معه، فأمر زواجها كان شيئاً يخصُّ أباها بالدرجة الأولي، ولم تعرف عن زوجها، فى بداية الأمر، إلا بعض الأخبار الغامضة، التى تسمعها على استحياء، حينما تحدثها الخادمات(١).

ومع هذا فقد أصابتها أزمة نفسية حادة كادت تذهب بعقلها، بعد علمها بوفاة خطيبها واستشهاده فى المعركة يقول السارد :

" لسوف تنتظره زينب فى المساء، والأحلام توشى عالمها الخصب الحزين.. وستظل إلى الأبد تتوقع خطوات فارسها المحبوب. وهو يضرب الأرض بأقدامه القوية.. وستنتظر طرقاته الساحرة على النافذة، لكنها هذه المرة تتعذب فى عالم اليأس والذهول، لأن الموتى لا يطرقون نوافذ الأحياء.. وستصفر الريح، ويصمت الكون، ويمتد الشقاء، وترتطم الأحلام الجميلة بصخرة الواقع المرير.. آه.. لقد مات مصطفي.. "(٢).

ويقول فى موضع آخر :

" وأدركت الأم أن فتاتها تتمادى فى أحلامها الخطرة، وتعبر عن اضطراب كبير.. إن الصدمة التى سقطت على رأسها تغير من تفكيرها وسلوكها، وتجعلها تبدو على حافة الجنون..

وبينما الأم تفكر في أمر زينب التعسة، سمعتها تقول :

إنني أنتظره كل مساء لدى النافذة..

دقّت الأم على صدرها فى خوفٍ وقالت :

ماذا تنتظرينه ؟؟ لقد انتهى الأمر وودع الدنيا يجب أن تدركى هذه الحقيقة، مهما كانت مرارتها وبشاعتها..... يجب أن تدركى أن الموت حق.. مات مصطفى كما مات

١) انظر الرواية / ٥٥
٢) الرواية / ٦٩، ٧٠

آلاف مثله، وكما سيموت آلاف.. وكما ستموتين أنت فى يوم من الأيام.. ولو حزن الناس على الموتى كما تحزنين، لما ارتسمت إبتسامة واحدة على الشفاه..[١]

– أما هيلدا فهى إبنة برتلمى الرومى، أو برطلمين كما كان يطلق عليه الطبقة العالية، أما عامة الشعب فكانت تناديه " فرط الرومان " وكانت ابنته الوحيدة، تبلغ ثمانية عشر عاماً وكان يحبها حباً ملك عليه فؤاده، ومن ثم كان لها أطوع من بنانها، ولم يكن ليرفض لها طلباً، أو يوجه لها عتاباً يخدش من كبريائها، أو ينال من تدللها، ومن ثم وجدت نفسها حرة طليقة تفعل ما يحلو لها، فلم يكن أبوها بمستطيع أن يعترض على سيرها فى شوارع القاهرة فى حارة النصارى أو الأزبكية حاسرة الوجه، محبوكة الثياب، ولم يكن يجد حرجاً يذكر عندما يراها تجالس سماره، وتجاذب أصدقاءه أطراف الأحاديث، بل كان يطرب عندما يرى أحداً من رؤسائه المماليك أو الأتراك أو أحد فرسانهم يبش لها، ويحنى رأسه إجلالاً لجمالها... ولم لا وهو يرى أن ابتسامتها فى وجه رؤسائه تبِّدد غيوم المشاكل والشكوك التى تخيم على أفق حياته العملية بين السادة الحاكمين.

– وكانت تربطها علاقة حب مع " إبراهيم أغا " ذلك الفارس المملوكى، وإن كان والدها لا يرضى عن تلك العلاقة وخاصة بعد أن علم بمقدم نابليون إلى مصر وقال لها " سيتغير وجه مصر.. سينتصر نابليون يا هيلدا.. وسيمزق الأتراك والمماليك شر ممزق، سترينهم بين قتيل وأسير وجريح وهارب فى فجاج الأرض.....

لم أقف فى طريقك يوماً يا هيلدا، لكنى أعرف عن يقين ماذا يجب أن أفعل الآن، إن علاقتك اليوم بإبراهيم أغا، ذلك الفارس المملوكى، علاقة حب، لكنها ستكون غداً خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون.. "[٢]

– وقد حاول والدها أن يجندها فى معسكر محمد بك الألفى ؛ لأنه كان واحداً ضمن طائفة الطوبجية، ولكنها أشاحت بوجهها، وخاصة بعد أن طلب منها أن تذهب إلى حبيبها إبراهيم وتضلله وتوهمه بأن الفرنسيين قادمون من ناحية دمياط، ولكنها لم تفعل إذ

١) الرواية، ١١١، ١٣٢
٢) انظر الرواية / ١٦، ١٧

اخبرته بالحقيقة "فلم تستطع أن تتصور إبراهيم وهو يتجه ناحية الشرق، ثم تفاجئه الضربات من الخلف فيخر صريعاً. "[١]

وقد تغيرت حياتها وسلوكها بعد أن علمت من أبيها بموت إبراهيم أغا في المعارك الدائرة، فسقطت فريسة سهلة للقائد " ديبوى " الذى لم يرحمها، ولم يحترم أساها الدامى وأنوثتها الجريحة، وسرعان ما انزلقت قدمها فهوت فى عالم الرذيلة والشقاء.. لقد ذابت مقاومتها، وانمحت إرادتها، إنها أتعس حالاً ممن كنَّ يُبَعْنَ فى سوق الرقيق الأبيض، إن الأرقاء لهم شريعة، والملاّك يقبضون الثمن، أما هي فقد سقطت دون مبرر من قانون قائم، ودون ثمن قبضته فى يدها، حتى أبوها هو الآخر بدا تعساً شقيا، لقد ظن لأول وهلة أنه سوف يدعم مركزه بتوثيق الصلة بينه وبين الجنرال ديبوى، لكنه يدرك الآن أكثر من أى وقت مضى أنه كان ضحية خطأ فاحش وإدراك للأمور سقيم، لقد كان يتخبط ويغامر دون روية حقيقية، وأفاق فى النهاية على الكارثة التى لا يعلم كيف يخفف من وقعها على نفسه وعلى وحيدته الضحية المسكينة.[٢]

ومن ثم عاشت هيلدا حياتها منذ تلك الفترة وهى مخمورة تترنح وتهذى وتدوس كل المقدسات إلا حبها لإبراهيم أغا لقد عاش فى قلبها. ولم يشف موت ديبوى قتيلاً بأيدى الثوار فى شوارع القاهرة غليلها، فقد نفض يده من أمرها فى تبجح وصفاقة، ورفض أن يتزوجها، وعاملها كما تعامل الخادمة، ودفع " مالوس " أحد ضباطه للزواج منها. ولكنه رفضته بعد أن علمت بأن إبراهيم أغا ما زال علي قيد الحياة.

وهكذا نرى صوراً متنوعه للمرأة فى هذه الرواية وقد تنوعت الصور نظراً لتنوع الأحداث والفترة الزمنية التى عاشتها الرواية وهى أواخر القرن الثامن عشر.

فالكاتب وهو يقدم صورة المرأة الضعيفة المستكينة الخائفة على مستقبلها ومستقبل أسرتها، يربط أزمتها بأزمة المجتمع المصرى، إلا أنها ترى أن هناك عشرات السبل لأن يظهر الإنسان إستعداده للبذل والعطف والوطنية، هذه السبل من وجهة نظرها أسلم عاقبة من الحرب المجنونة التى يشنها الكفار الفجرة كما تردد دائماً.

١) الرواية / ٣٥
٢) انظر الرواية / ١٠٠، ١٠١

كما تبرز الرواية صورة الرومانسية فى جلائها وسموها من خلال حب هيلدا لإبراهيم بالرغم من اختلاف الديانة واختلاف الجنسية، وكيف أنها عندما علمت بموته المزعوم أصبحت تحيا ضائعة ممزقة فى شبة غيبوبة، تحاول النسيان بطرق شتى كريهة إلي نفسها.

فصورة المرأة في هذه الرواية تستقطب قضية الحرمان العاطفى، فالمرأة دائماً مأزومة حزينة. لأنها تعجز عن أن تحقق سعادتها بالزواج ممن تحب. وهذا الحرمان تجسيد لكل سلبيات العصر. وقد زاد من وطأة العذاب وضاعف من لوعة الحرمان السلبية المطلقة التي يلقى بها الأبطال والبطلات ظلم المجتمع لهم. إنهم يسيرون منذ البداية في طريق محفوف بالمخاطر حين يسمحون لعواطفهم أن تنمو في علاقة لا يرضاها المجتمع، ومع ذلك لا يفكرون في الوسيلة الإيجابية للظفر بالمحبوب، وإنما ينتظرون حتى يخطف من بين أيديهم ثم يبكون عليه. وقد اقترن بصورة المرأة وسلبيتها إزاء حركة المجتمع في الرواية انعزالها المطلق وهروبها، حتى عن أفراد أسرتها لا تحس بهم ولا تتفاعل معهم. وهكذا يقدم الروائى المرأة منقطعة الصلة بالواقع مبتورة الإحساس به والتفاعل معه كما يقدمها في حالة سلبية هروبية عاجزة عن مواجهة أزمتها والتصدى لها بالحل والعلاج بل حتى بمجرد التفكير السوى.

– كما أبرزت صورة الوفاء والطهر والنقاء من خلال زينب وحبها لخطيبها وحزنها على موته لدرجة أنها كادت تفقد عقلها.

أنها صور عديدة لشخصيات متنوعة فرضتها طبيعة الرواية.

والرواية تفيض بالتفاصيل التاريخية والاجتماعية التى تصور هذه الفترة.

وعلي الرغم من أن الرواية لم تتخلص كثيراً من إطار السرد، فإن الحركة الدرامية للأحداث فيها قد كثرت ووضحت إيجابيتها ولم تعد سلبية أو غير مبررة، كذلك يجئ الحوار ليعبر بالدرجة الأولي عن طبيعة البشر أكثر مما يعبر عن حركة التاريخ، كما أنه يحاول إلي حد كبير إحياء الجو الحضارى الذى تدور فيه الرواية، وأن ينقل التجربة من الإطار الذاتي إلى إطار التجربة الإنسانية العامة.

كما أن تكنيك الرواية عنده يشبه تكنيك المسرحية من حيث العناية بإبراز الصراع في نفوس البشر، وعلى هذا فالصراع هذا ليس ملحمياً أى بين البشر والقدر الذي لا يملكون معه رداً أو دفاعاً، وإنما الصراع هنا درامى بينهم وبين بشر آخرين مثلهم في المجتمع.

تختلف رواية "**مملكة البلعوطى**" عن غيرها من روايات الكيلانى فى أنها لا ترتكز على شخصية نسائية رئيسية تدور حولها الأحداث، بل جميعها شخصيات رئيسية وقد قدم لنا من هذه الشخصيات، شخصيتين يمثلان الثنائية النمطية لنموذجين متناقضين للمرأة كما حدث فى العديد من رواياته .

الصورة الأولي : تمثلها " ريحانة " تاجرة المخدرات امرأة فاسدة تبيع المخدرات، وتبيع شرفها، فهى امرأة سيئة السمعة هى وأمها، والغريب زوجها ترك لها الحبل على الغارب، فكان لا يهتم بالعبث الذى تمارسه زوجه دون حياء، وكان فريد أبو العز يريد أن يتزوجها، ويطلقها من زوجها وقد طلبت مهرها رأس " محمد بن بحراوية " تقول على لسان القاص :

" إذا مات ابن بحراوية فستهنأ الأرواح الحائرة التى سفك دمها، وستخمد الفتن، وسيفكر أبوك ألف مرة قبل أن يولى غيره على عرش الظلم.. إنك تقدم بذلك خدمة إنسانية للمجتمع. " (١)

وقد كانت ريحانة امرأة غريبة التصرفات ويصعب فهم نواياها فى كثير من الأحوال.

وقد عللت لتجارتها للمخدرات عندما حدثها فى هذا الأمر السيد " إبراهيم عبد اللطيف " أو البلعوطى، طالباً منها أن تغير تجارتها وسيقوم بمساعدتها مذكراً إياها بأن هذا أفضل ألف مرة من السجن وخراب البيوت بأنه " باب رزق لنا، لو كنا نملك الأود لما فعلنا " (٢)

١) الرواية / ١٣١
٢) الرواية / ١٨١

ولم تقتنع " ريحانة " بما قاله إبراهيم عبد اللطيف، واكتفت بتركها البلد والرحيل إلى زفتى والبقاء على تجارة المخدرات مما أوقعها فى قبضة مباحث المخدرات، وقد تعلمت من هذا الدرس، وكان بداية لحياة جديدة لها ولزوجها [١]

يقول القاص :

" كانت ريحانة تشعر بالمرارة والأسى، شربت فى السجن كأس الذل والمهانة، بكت كثيراً حتى ظنت أن مخزونها من الدموع قد نفذ، لم تكن قبل ذلك تكترث لما حدث أو ما سيحدث، لاخوف ولا قلق برغم خطورة التجارة التى مارستها، أما اليوم فقد داهمتها الهموم والهواجس وتضعضت ثقتها فى غالبية الناس، وكاد ينطفئ توهج الحياة فى قلبها الشاب الممتلئ بالثقة والأمل، لا ضمان لشئ فى هذه الأيام التعسة." [٢]

أما الصورة الثانية : فهى صورة المرأة الشريفة، التى تحافظ على عرضها، فتقتل من يحاول أن يعتدى عليه، متمثلة فى " عديلة " زوج " راغب المغربى ". قاتلة محمد بن بحراوية، كانت فى الثلاثينات من عمرها، وكانت تتمتع بجمال ظاهر لا يخفى على الناظرين.

وحين اعترفت بجريمتها قالت فى تحدٍ وشماته :

" نعم أنا قتلته.. انتهز فرصة غياب زوجى، ودخل على ومعه زجاجة خمر.. وهجم على... كان يريد اغتصابى بالقوة... تظاهرت بالموافقة.. ثم أحضرت الفأس.... ضربته بكل قوتى على رأسه بمؤخرة الفأس.. فقد وعيه، أحضرت السكين وذبحته... أصابتني حالة من الجنون.. لم أكن أدرى ماذا أفعل.. وجلست إلى جوار جثته مذهولة حتى عاد زوجى متأخراً " [٣].

إنها صورة المرأة الشريفة، التى قهرت الشيطان، وسفكت دم الباغى، ولم تستسلم أو تهرب، بل واجهته بقوة يعجز عن مثلها كثير من الرجال، وأصبحت عديلة أسطورة من الأساطير، ألّفوا عنها المواويل، وارتجلت إحدى الشاعرات الشعبيات أغنية بسيطة كان لها أكبر الصدى فى النفوس :

---

١) انظر الرواية / ٢٢٣
٢) الرواية / ٢٣٥
٣) الرواية ١٦٤

يـــــــــــــــا عديلـــــــــــــــة شـــــــــــــــرفتينا
ودبحتـــــــــــــــى ابـــــــــــــــن الـــــــــــــــذين
نفـــــــــــــــديك بنـــــــــــــــور عينينـــــــــــــــا
وحيـــــــــــــــاة الهـــــــــــــــادى نبينـــــــــــــــا
يـــــــــــــــا عديلـــــــــــــــة شـــــــــــــــرفتينا
عرضـــــــــــــــك علينـــــــــــــــا غـــــــــــــــالى
يـــــــــــــــا أم الجـــــــــــــــبين العـــــــــــــــالى
أفـــــــــــــــديكى بروحـــــــــــــــى ومـــــــــــــــالى
يـــــــــــــــا غنـــــــــــــــوتى ومـــــــــــــــوالى
يـــــــــــــــا عديلـــــــــــــــة شـــــــــــــــرفتينا
البلعـــــــــــــــوطى ويـــــــــــــــاكى
والـــــــــــــــروح والقلـــــــــــــــب معـــــــــــــــاكى
شرشـــــــــــــــابة ماشـــــــــــــــية وراكـــــــــــــــى
وتـــــــــــــــدعى الله يرعـــــــــــــــاكى
يـــــــــــــــا عديلـــــــــــــــة شـــــــــــــــرفتينا[1]

فقد كانت مظاهرة، من أجل امرأة شريفة، لم تشهد المنطقة لها مثيلاً من قبل. وقد حكم عليها بخمس سنوات مع ايقاف التنفيذ، وهو شبيه بالبراءة. [2]

وهذه الصورة إن دلت على شئ، فإنما تدل على قيمة الشرف فى المجتمع المصرى بصفة عامة، والمجتمع الريفى بصفة خاصة أما باقى الشخصيات النسائية فتتمثل فى " البابلية " زوجة " البلعوطى " الرابعة، وبمعنى أصح الثالثة بعد أن طلق واحدة، وكانت آخر من تزوج، وقد عزم ألا يتزوج بعدها بعد أن حفيت قدماه حتى تزوجها، ذلك لأنه لم يستطع أن يقاوم جمالها، وكانت من أسرة عريقة من قرية.

" ميت ميمون " اسمها أسرة البابلى، ولهذا أطلقوا عليها فى شرشابة اسم " البابلية " على الرغم من أن اسمها الحقيقى " مباركة "، ومنذ أن تزوجها لم يعد يهتم كثيراً

١) الرواية / ١٧١، ١٧٢
٢) انظر الرواية / ٢٢٠

بالزوجتين السابقتين : مسعدة التى أنجبت منها ثلاثة من الأولاد وبنتين، ومبروكة التى لم ينجب منها غير محمد، ولكن البابلية ظلت الحبيبة الأثيرة إلى قلبه، ولكنها كانت عقيماً، ولكن هذه القضية لم تكن تؤرقه، فقد كان يكفيه جمالها وحبها الكبير له، وقد استطاعت بجمالها وذكائها ورقتها أن تجعل إبراهيم ينصرف إليها فى معظم الأوقات. مما كان يثير حفيظة مسعدة ومبروكة، ضرائرها وكانت تحب أبناءه من مسعدة، فقالت عندما عرض عليها إبراهيم أن تنتقل إلى بيت مستقل بعد أن ضايقها تصرف ضرتيها:[١]

" لن أستطيع الافتراق عن أولادك يا إبراهيم، ذلك لأنى أحبهم ولا أستطيع العيش بدونهم، إنهم أولادى.. لقد عوضنى اللّه بهم عن الخلف.. لا أطيق أن أبعد عن كامل وعبد الفتاح وأحمد... "

ولما سكتت قال لها إبراهيم :

" ومحمد ؟ "

" تكفيه أمه مبروكة، إنه يعاملنى بكراهية، ويرفض حتى مجرد تعطفى عليه، أو الحديث معه.. " [٢]

أما " رقية " ابنة الشيخ عبد القادر الشاذلى، فكانت من أولى المرشحات للزواج من " كامل " ابن البلعوطى، وكانت فتاة جميلة وارعة، شربت الصلاح والتقوى من أبيها، ولم تكن تخرج من بيتها إلا منقبة تحت جنح الظلام وإذا كانت هناك ضرورة ملحة، ولم تكن تخاطب غير ذى محرم إلا من وراء حجاب شأنها فى ذلك شأن نسوة البيت.

وهكذا نرى أن الرواية لم تعتمد على شخصية نسائية رئيسية واحدة، كما كان الغالب على روايات الكيلانى بل تعددت الشخصيات، وكان أبرزها الثنائية النمطية للمرأة اللعوب والمرأة الشريفة، كما كانت صورة الضرائر واضحة من خلال زوجات البلعوطى، بالإضافة إلى صورة الفتاة الرقيقة الوادعة المتدينة المتمثلة فى رقية، وإن كانت الرواية أبرزتها فى شخصية مسطحة.

صورة المرأة الإجتماعية :

١) انظر الرواية / ٥٧، ٥٨، ٥٩
٢) الرواية / ٦٣

أما فى رواية "**ملكة العنب**"، فإننا نجد أنفسنا أمام شخصية لها سمة خاصة، وطابع فريد، يختلف عن باقى الشخصيات النسائية فى روايات الكيلانى.

فهى امرأة لديها من الذكاء والحصافة، وحسن التخطيط والتدبير ما لم يتواجد لدى كثير من الرجال.

إنها الحاجة " براعم " " ملكة العنب "، امرأة ذات وجه نضر، مشرق بالحيوية والشباب والسمرة الخفيفة، وفم دقيق، عينيها مكحولتين، ذات رموش طويلة، نظراتها توحى بالقوة والثقة بالنفس والرغبة فى المجابهة وكانت تعرف " بملكة العنب " لامتلاكها مزارع كثيرة للعنب، وكانت تعرف " بست البلد " ولا يجرؤ أحد على مخالفتها، ولم تولد " براعم " ملكة العنب وفى فمها ملعقة من ذهب، فقد مات أبوها وهى صغيرة، فخرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، وكانت أمها معتلة الصحة، وكان لها أختان صغيرتان، وكانت أول من أدخل زراعة العنب فى القرية على نطاق واسع، فقد نقلت ذلك عن أخوالها فى قرية مجاورة اسمها " شِنراق " التى أصبحت لديها خبرة كبيرة فى ذلك، بعد أن تحول كل سكانها إلى ذلك... بدأت بزراعة أفدنتها الأربعة التى تركها أبوها، وبعد أن نجحت أخذت فى استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية، حتى أصبح ما تزرعه يزيد عن ثلاثين فداناً..

وكان من الطبيعى أن تتزعم ما يمكن أن يسمى " نقابة زرّاع العنب " فهى التي تختار المبيدات الحشرية والأسمدة المناسبة وهى التي تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجار للحصول على أعلى سعر، ومن هنا أطلقوا عليها " ملكة العنب ". كل رجال القرية وأطفالها ونسائها يعرفون "براعم " ويحبونها، ولم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها.(١)

وعلى كل مميزات هذه الشخصية، فقد كان فيها عيب أساسي وهو رأسها الصلب، فإذا رأت رأيا أصرت عليه، ودافعت عنه في استماته، وتأبى التنازل مهما كان الثمن، وذلك لا يتفق وطبيعتها التجارية، حيث أن التجارة تحتاج إلى الكثير من المرونة والكياسة، ولكنها... لا تتخذ قراراً إلا بعد فحصه وتقليبه على كافة الوجوه والتشاور مع من تثق فيهم بشأنه، وترى في ذلك قمة الديمقراطية. وقد ظنت براعم أن الشيخ محمد

١) انظر الرواية / ١١

حين تعرض لقضية زكاة العنب، أنه يحرض الناس على سرقة العنب إذا لم يخرجوا زكاة محصوله، وكان هذا هو الصدام الوحيد الذي حدث بينها وبين محمد حسب اللَّه.

" إذ أنها فهمته بشكل مختلف عن الحقيقة، إذ صّور لها بعض معاونيها أن ذلك فيه تعريض بها، واتهام لها بالظلم والجشع، خاصة وأنها كانت تقدم العون للكثيرين، كما رأت فيه أيضاً تهييجاً للرأى العام في القرية، وهى تعتمد أساساً على حب أهل القرية الفقراء الطيبين، وتعتمد عليهم في صراعها مع الحيتان من كبار المزارعين والتجار، أو بمعنى آخر، رأت أن كلمات محمد حسب الله قد تهز عرشها إن لم تقّوض أركانه، وخاصة أن دعوته إلى دفع زكاة العنب قد صاحبها ممارسات مشبوهة كالسرقات التي انتشرت في تلك الفترة، وفى أعقاب دعوته ولقد تمادت براعم حينما شكته إلى العمدة، ودّبرت أمر منعه من الصعود إلى المنبر لأداء خطبة الجمعة، والحقيقة أنها كانت تشعر بقدر كبير من عدم الارتياح وهى تفعل ذلك إذ لم يغب عن ذهنها لحظة أنه الرجل الصالح الذي لا تحركه أهواء أو أحقاد، وأن له الحق كل الحق في أن يفتي في أى أمر من الأمور. " [١]

فصورة المرأة في هذه الرواية يبرز دور المرأة الاجتماعى، الذي لا يقل عن دور الرجل وإن زاد. وقد كان لبراعم أكثر من موقف يدل على مدى مشاركتها الاجتماعية لقريتها وأهلها، أهمها موقفها من قضية "الربايعة"، وهي قضية سياسية . مداها . سوء معاملة المصريين في العراق، وحضور جثة أحد أبناء القرية ميتاً، وعليها آثار العنف والاعتداء الجسيم، وقد تعرضت جنازته لرجال الآمن المركزي بأسلحتهم وقنابلهم المسيلة للدموع، وسوق عدد كبير إلى السجن، وكان غضب الناس منصباً على سلبية الموقف الرسمى للحكومة المصرية.

وما كان من براعم إلا أن وظفت مالها من أجل إطلاق سراح المأسورين، ولم تترك باباً إلا وطرقته، فقد قصدت محامياً كبيراً تعرفه، وطلبت منه أن يختار ما يشاء من المحامين، وأن يبذلوا أقصى جهودهم للإفراج عنهم وخاصة الشيخ محمد حسب الله.

وقصدت ديوان المحافظة، وقابلت المحافظ، وقدمت له شيكاً باسمه بمبلغ ثلاثين ألف جنيه تبرعاً للمشاريع الخيرية التي تقوم المحافظة بإنشائها.

---

١) انظر الرواية / ١٦٠

وقصدت إحدى نائبات مجلس الشعب في دائرة غير دائرتها واصلة إلى أبعد مدى، ولها علاقة وطيدة بالكبار وقدمت لها شيكاً بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه طلبتهم النائبة بنفسها. حتى تم الافراج عنهم.

ثم أنها أقامت مشروع زكاة العنب الذي كونت له لجنة من أفاضل الناس، فعّم الخير والرخاء بلدها.

كما رصدت ميزانية لرعاية أطفال مصطفى السلامونى وزوجه حتى لا يضيعوا بعد مقتل أبيهم، أو يودعوا في الملاجىء وساعدت الطلبة الفقراء بمبلغ مالى شهرى حتى يستطيعوا مواصلة تعليمهم.

وهذا هو الإسلام الحقيقى، وهكذا تكون تطبيق مبادئه في الدولة.

وهكذا أحبت براعم " الربايعة " وأهلها حباً ملك عليها زمام روحها، كانت تعشق الناس والأرض والزرع الأخضر، حتى لكأن هذا الشعور ولدمعها " وأحياناً كانت تأخذ قبضة من تراب الأرض وتشمها وتقبلها في حنان، وعندما كانت تظهر عنا قيد العنب كانت تمرغ وجهها الجميل فيها وتلثمها بشفتيها، مثلما كانت تلثم الأطفال الصغار وهم يلعبون في الحقول وعلى شاطىء الترع وفى الحوارى. تكاد تكون الربايعة جزءاً لا يتجزّأ من جسدها وروحها. " (١)

وبقى أن نتحدث في أمر زواجها حتى تكتمل صورة هذه الشخصية، فقد رفضت براعم الزواج من كل من تقدم إليها من الموظف والتاجر، وضابط نقطة الشرطة.

وهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على أنها بداخلها إنسان له صفات معينة، تحاول العثور عليه، وإن كان ماثلاً أمامها إلا أنها لا تستطيع الإشارة إليه، ولكنه يصطرع في نفسها، ويتجسد في أفكارها. وظهر هذا جلياً واضحاً في حديثها لصويحباتها عند حديثهم عن الشيخ محمد حسب الله حين قالت إحداهن :

" أقطع ذراعى إذا كنت لم تفكرى في الزواج منه " (٢)

وكان ردها كافيا شافياً عليهن :

---

١) الرواية / ١٦٩.
٢) الرواية / ١٦٣.

" قد يكون فقيراً متواضعاً لا يملك إلا راتبه الشهرى، لكن قلبه كنز، وعقله كنز، وأخلاقه جواهر..

. لكنك تستحقين فارساً طولاً وعرضاً..

ردها . الفارس صورة نتخيلها، لا وجود لها.. لكن حياتى، علمتنى أن الفرسان الأصلاء رجال يدبون على الأرض، نراهم، ويروننا.. والخيال سيعلو بنا إلى السماء، فنظل حائرين بين السماء والأرض.. "[١]

وقد تم عقد قرآنهما . لأول مرة . في مسجد القرية الكبير.

وبعد هذا العرض لصورة المرأة في بعض روايات الدكتور نجيب الكيلانى، نستطيع القول بأن صورة المرأة في رواياته تتناول النساء الفضليات والمتحررات، كما خلقهن الله الصالحات والطالحات، وكما خلق الرجال.

فالكيلانى في رواياته رسم صورة لعالمين متباينين :

عالم المرأة الملتزمة الجادة التي تعرف حق نفسها، وحق ربها وتقيم حدوده وتطيع أوامره ولا تعصيه في نفسها ولا بيتها.

وعالم المرأة المتحررة من رقابة الأخلاق والضمير والقيم والبعد عن الدين، ولا تعرف للشرف معنىَ، ولا للطهر والعفاف مدلولاً، فهى غارقة في الملذات والشهوات، ولا تبدى بادرة توبة ولا ندم.

والكيلانى في رواياته لم يخرج عن منطق الحياة الذي خطه الله سبحانه وتعالى للنفس الانسانية الخيرة والشريرة، المخلصة والغانية، الصالحة والطالحة، الملتزمة والمتحررة، يقول سبحانه وتعالى فى سورة التحريم " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ "[٢]

١) الرواية / ١٦٣.
٢) آية / ١٠، ١١.

والحقيقة التى لا مراء فيها أن نجيب الكيلانى قد ترك فى نفوسنا بقصصه هذه أثراً نحس معه دور المرأة وأثره فى واقعية الحياة.

فالكيلانى لم يقف بالمرأة عند دورها " كربة بيت " أو إنها أنثى وظيفتها حفظ النوع، بل اثبت أنها إنسان لها كل الحقوق التي للرجل. لذلك تبدو صورة المرأة عنده إيجابية متفاعلة. وحركة المرأة في الرواية عند الكيلانى انعكاس لحركتها في الحياة، لذلك يبدو الأدب عنده وثيق الصلة بالواقع الذي يصوره ويعبر عن حركته فالكيلانى روائى واقعى يصدر عن رؤية أكثر إدراكاً للواقع، وأشد وعياً بالعوامل المؤثرة فيه، ومن ثم كان تصوره للمرأة في الواقع والفن أكثر تقدمية، إنها عنده إنسان متفاعل ومشارك، ذو إرادة حرة وعواطف يجب أن تحترم، لذلك كانت الصورة ذات طبيعة ديناميكية متحركة، وهى في حركتها مدركة لجميع العلاقات الاجتماعية التي تتحرك من حولها، وحين تتأزم تدرك بوعى الأسباب المؤدية للأزمة، إنها لا تحارب مجهولاً ولا تتحرك في فراغ، وتصرفاتها مبررة أو قابلة للتبرير، حيث تتصرف متسقة مع طبيعة الشخصية وظروفها، فأصبحت الصورة " نامية "، نتيجة لوعى الأديب بالظروف الاجتماعية المختلفة التي تحرك المرأة في الواقع، ومن ثم كان انعكاسها على الفن صادقاً.

فصورة المرأة فى قصصه تظهر حقائق الحياة ببساطتها وتعقدها، وسهولتها وصعوبتها، وتؤمن بمقدرة المرأة عموماً على التطور والإبداع، وتعطف على مشكلاتها وتشترك فى حلها.

فقصصه دعوة إلى تكريم إنسانية المرأة، واحترامها وترحيب بالجهود البناءة الواعية لحضارة واعية.

وقصصه عموماً نغم منسجم مع نتاجه الأدبى، من ناحية الهادفية المؤمنة، والعمق والشفافية المتصوفة التى تبدو كومض الخاطر بين السطور.

المصادر والمراجع

١- ديوان مهاجر / نجيب الكيلانى . ط / مؤسسة الرسالة . بيروت . ط / الأولى ١٩٨٦م.

٢- صورة المرأة في الرواية المعاصرة / د / طه وادى / ط / دار المعارف . ط / الثالثة / ١٩٨٤م.

٣- المرأة الجديدة / قاسم أمين / ط / دار المعارف.

٤- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين . جمع وترتيب وتنفيذ هيئة المعجم، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى / ط / دار القبس، ط / الأولى ١٩٩٥م.

٥- صورة المرأة في الرواية المعاصرة / د / طه وادى / ط / دار المعارف . ط / الثالثة / ١٩٨٤م.

الروايات التي درست بالبحث مرتبة حسب دراستها :

١- رواية رأس الشيطان / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٢- رواية حكاية جاد الله / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٣- رواية رجال وذئاب / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٤- رواية ليالى السهاد / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٥- رواية أهل الحميدية / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٦- رواية الذين يحترقون / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

٧- رواية الربيع العاصف / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٢م.

٨- رواية عذراء جاكرتا / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٢م.

٩- رواية اليوم الموعود / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٢م.

١٠- رواية النداء الخالد / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

١١- رواية مواكب الأحرار / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

١٢- رواية مملكة البلعوطى / ط مؤسسة الرسالة ١٩٩٩م.

١٣- رواية ملكة العنب / ط / دار ابن حزم / ١٩٩٢م.